المساواة في الإرث : الدولة المدنيّة ونهاية الإسلام السّياسي؟

بديل

العربية

Leaders

العدد 32 • السعر : 2،5 د.ت • أوت 2018

كيف نحمي أطفالنا من فضاءات التنشئة العشوائية؟

د. احميدة النّيفر: «سؤال المرأة» في الزمن المُعَوْلم

بقلم عبد الحفيظ المرقاوي

حتّى نجنّب تونس الوصفات الخاطئة

لعلّنا لا نبالغ في شيء إذا قلنا إنّ الأزمة السياسية التي تعيشها تونس بلغت هذه الأيّام منعطفا خطيرا يتجلّى في بلوغ تعفّن المشهد العام أقصى درجاته وارتفاع منسوب المناكفات والمشاحنات بين أطراف غدا همّها الوحيد اكتساب مواقع متقدّمة قبل انتخابات 2019. لقد بدأت عمليات حشد الأنصار ومحاولات تشويه الخصوم وازدادت وتيرة الاصطفاف وراء هذا الطرف أو ذاك ولم يتورّع جانب من وسائل الإعلام عن الانخراط في هذا الصراع ، ممّا يدعو إلى طرح أكثر من سؤال حول مدى حيادها واستقلاليتها.

ولأنّ العديد من التونسيين لم يعد يهمّهم شيء من أمر السياسة والسياسيين بعد أن خبروا ممارساتهم ووقفوا عند غاياتهم ومراميهم فإنّهم يتابعون الانحدار المخيف للطبقة السياسية بمختلف مكوّناتها بألم وامتعاض شديدين وبنظرة لا يغيب عنها الوعي بخلفيّات الأمور ومسبّباتها.

ومن المرجّح أن يحتدم الصراع من أجل السلطة وتتّخذ التوتّرات السياسية والاجتماعية نسقا تصاعديا كلّما اقتربنا من موعد إجراء الانتخابات. ومن البديهي الجزم بأنّ تونس غير قادرة على تحمّل المزيد من الهزّات والتقلّبات خلال هذه الفترة المفتوحة على كلّ الاحتمالات في المجالات الاقتصادية والاجتماعية والأمنية. فما الحلّ إذن لدرء كلّ هذه المخاطر وللحفاظ على استقرار تونس وأمنها ؟

لا نعتقد أنّ الحلّ الأمثل يكمن في تبنّي المقترح الذي تقدّمت به «مجموعة الأزمات الدولية» (International Crisis Group) في دراسة لها حول تونس والمتمثّل في تشكيل حكومة تكنوقراط إذا ما تواصلت خلال الأشهر القادمة التوتّرات السياسية والاجتماعية ممّا من شأنه «أن يدعم الثقة بالمؤسّسات ويحدّ من الخصومات السياسوية ومن الأحقاد تجاه الطبقة السياسية». وعلاوة على عدم نجاعة هذا المقترح وطول الوقت الذي قد يستغرقه تشكيل هذه الحكـومة والجدل الذي سيثيره فإنّه يتعارض مع قواعد الديمقراطية التي تقتضي أن تواصل الأغلبية تحمّل مسؤولية الحكم إلى حين إجراء انتخابات جديدة.

كما لا نرى أنّه من الصائب الأخذ بالمقترح الذي يُروّج له في الكواليس والمتمثّل في تقديم موعد الانتخابات التشريعية إلى الربيع القادم «حتّى تُجرى الانتخابات الرئاسية في أجواء هادئة». وبالإضافة إلى كون هذا المقترح لا ينسجم مع الفصل 56 من الدستور الذي ينصّ على أنّ مجلس نوّاب الشعب يُنتخب لمدّة خمس سنوات خلال الستين يوما الأخيرة من المدّة النيابية فإنّ غالبية الأحزاب لن تكون في ذلك التاريخ على استعـداد لخـوض غمار الانتخابات، ما عدا حركة النهضة.

أمّا المقترح الثالث الذي ما فتئ يطرحه بإلحاح عدد من السياسيين ورجال القانون فهو يتعلّق بتعديل الدستور قصد تغيير النظام السياسي في اتّجاه منح صلاحيات أوسع لرئيس الجمهورية، فإنّه على وجاهته في جوانب عدّة ، يطرح إشكالية أساسية تتمثّل في تشعّب المسار الدستوري وضرورة إيجاد أكبر توافق ممكن حوله، علاوة على احترام قواعد اللعبة الديمقراطية بعد إقرارها. غير أنّ تنقيح النظام الانتخابي في سبيل منع تشتّت الأصوات وضمان أغلبية مريحة في مجلس نوّاب الشعب من شأنه أن يمثّل عامل استقرار سياسي في المستقبل.

إنّ الخروج من المأزق السياسي الذي تردّت فيه تونس يتطلّب من كلّ الأطراف الفاعلة في الساحة الوطنية التحلّي بالحكمة والرصانة والجنوح إلى الحوار والتشاور لمعالجة المشاكل القائمة وتجنيب البلاد الوصفات الخاطئة التي لن تؤدّي إلّا إلى مزيد تعكّر الأوضاع وتأزّمها. كما يتطلّب من القوى الديمقراطية والتيارات الوسطية تكاتف الجهود والعمل بجدية من أجل تحقيق توازن في المشهد السياسي بما يحول دون «تغوّل» حركة النهضة المنتشية بالنتائج الإيجابية التي حقّقتها في الانتخابات البلدية الأخيرة ويساعد على تثبيت توجّه الدولة المدني والحداثي.

عيـد إضحـى مبـارك وكلّ عـام وأنتـم بخيـر

ع.ه

ليدرز العربية Leaders

مجلّة شهـــريّة تصدر في منتصف كلّ شهر

المدير المسؤول
توفيق الحبيّب

مستشار التّحرير
الهادي الباهي

مدير التّحرير
عبد الحفيظ الهرقام

هيئة التّحرير

احميده النّيفر • رشيد خشانة • محمّد العزيز ابن عاشور • عبد اللطيف الفراتي • محمّد ابراهيم الحصايري • عزالدين المدني • محمّد حسين فنطر • منى كريم الدريدي • عادل الأحمر • منذر بالضيافي • الصحبي الوهايبي • عامر بوعزّة • الحبيب الدريدي• توفيق جابر • المختار المستيسر • عادل كمّون• عادل كعنيش • علي اللواتي • يوسف قدية • عبد الدايم الصماري • حنان زبيس • خالد الشابي • نجاح الخرّاز

التصور والإخراج
أحـــمـــد الـشـــارني

موقع الواب
رايد بوعزيز

صـور
ليـــدرز حقوق محفوظة

مراجعة النّصوص
احميدة الحيدري

فيديو
مروى مقني

التسويق والاتصال
جيهان واز • بوران النّيفر

الإدارة والتوزيع والاشتراكات
فيصل المجّادي • حمدي المزوغي

الإسناد
شوقي الرياحي • الحبيب العبّاسي • لمياء عليّات • ليلى منيف

طباعة
سامباكت

PR Factory
مجمّع النّور، مدينة العلوم،
صندوق بريد 200، حي المهرجان 1082، تونس
الهاتف: 111 232 71 - فاكس: 333 750 71
www.leaders.com.tn
marketing@leaders.com.tn
redaction@leaders.com.tn

متوفرّة على رحـلات
الخطوط التونسية TUNISAIR

الفـهـرس

الافتتاحيّة
• حتّـى نجنّـب تونس الوصفـات الخاطئة 1
عبد الحفيظ الهرقام

شؤون وطنيّة
• المساواة في الإرث : الدولة المدنيّة ونهاية الإسلام السّياسي؟ 11
• تآكلُ الطبقة الوسطى يُهـمِّـشُ دورها السياسي 16
رشيد خشانة
• ملف : كيف نحمي أطفالنا من فضاءات الـتـنـشئـة الـعـشوائـيـة ؟ 18
خالد الشّابي
• «سـؤال المـرأة» في الزمن المُعَـوْلـم 24
د. احميدة النّيفر

مجتمع
• المـرأة مستقبـل الإنسـان 26
منجي الزّيدي
• يوميّات مواطن عيّاش : المادام عاملة اعتصام! 28
عادل الأحمر
• «...تعـالَوْا إلى كلمة سَواء...» 30
الشاذلي القليبي

اقتصاد
• تونس وصندوق النقد الدولي 34
محمّد الهادي زعيّم

شؤون عربيّة
• إقرار قانون «إسرائيل الدولة القومية للشعب اليهودي» 38
التداعيات المُنْتَظَرة والرّدود المُفْتَرَضَة
محمّد ابراهيم الحصايري

42 ص

34 ص

الهدف من هذا المقال هو إعطاء فكرة واضحة ومبسّطة وموضوعية عن صندوق النقد الدولي، هذه المؤسّسة الدولية التي التصقت بها في مخيّلة أغلبية الناس صورة المارد الذي يرهب الدول النامية بإلزامها اتّباع سياسات تنتهي في آخر المطاف بتجويع الطبقات المتواضعة وتعميق التبعية. ←

53 ص

تضطلع المقدّمة في كتاب حمادي صمود «طريقي إلى الحرية» بالدّور الذي حدّده فيليب لوجون للميثاق في نظريته حول أدب السّيرة الذاتية، ففيها يعرض الكاتب أمام القارئ خطة العمل لتكون التزاما أدبيا بين الطرفين ←

71 ص

صدر للأستاذ البشير بن سلامة مؤخّرا عمل سرديّ جديد عن دار برق للنّشر والتّوزيع يحمل عنوان «الفتنة»، وهو يقع في 135 صفحة ويحتوي على أربعة فصول. ←

شؤون دوليّة

• وزيرة الدولة البريطانية للتعاون الدولي بينيلوب موردنت ضمانات بـ7 مليارات.د.ت لفائدة المستثمرين البريطانيين في تونس — 42
رشيد خشانة وعبد الحفيظ الهرقام

أعلام تونسيّون

• مائويّة الأستاذ الشّاذلي بو يحيى (1918 - 1997) — 46
من أساطين الجامعة التّونسيّة
د. الحبيب الدريدي

ثقافة وفنون

• المخطوطات العربية في إيطاليا — 48
د. عز الدّين عناية

• حمادي صمّود، الإنسان والحرية — 53
عامر بوعزّة

• قصّة قصيرة : زردة في نهج الدبّاغين — 56
علي اللواتي

• الفيلم الوثائقي في تونس...بين التهميش والتنميط — 63
د. محمّد ناظم الوسلاتي

من التّاريخ

• حجّ التونسيين إلى البقاع المقدّسة عبر العصور — 66
عبد الحفيظ الهرقام

إصدارات

• «الفتنة» للبشير بن سلامة عندما يمتزج المرجعيّ بالتّخييليّ — 71
د. الحبيب الدريدي

بطاقة

• لا تُدرْ ظهرك لكلبك — 76
الصّحبيّ الوهايبي

Découvrez les avantages du voyage sans cash

- Soyez rassuré avec une assurance maladie en voyage qui vous couvre ainsi que votre famille.
- Profitez des réductions jusqu'à 30% avec Cleartrip lorsque vous réservez des vols aller-retour internationaux ou des nuitées d'hôtel .
- Comptez sur Mastercard Global Service™ pour avoir un dépannage en cash en cas d'urgence, où que vous soyez dans le monde.
- Faites votre choix parmi des centaines d'offres dans des restaurants, spas et attractions avec les Offres Mastercard Buy 1 Get 1.
- Bénéficiez d'avantages et de réductions exclusifs sur des marques de luxe dans les Villages Chic Outlet Shopping® en Europe.
- Accédez à des expériences et des offres Priceless Cities dans le monde entier.
- Ne payez que pour les achats que vous autorisez et protégez-vous contre la fraude.

Pour plus de détails, consultez **www.mastercard.com/prepaid - www.bna.tn**

mastercard.

خفايا تكريم الدبلوماسيين

اقترن اختتام الندوة السنوية لرؤساء البعثات الدبلوماسية والدائمة والقنصلية يوم 31 جويلية الماضية بقصر قرطاج بمبادرة الرئيس الباجي قايد السبسي بتكريم ثلّة من الدبلوماسيين وذلك بمنحهم وسام الاستحقاق الدبلوماسي المستحدث مؤخّرا. ولم يكن من السهل اختيار الموسّمين من بين عديد الدبلوماسيين والدبلوماسيات الجديرين بمثل هذا التكريم.
لذلك تقرّر أن تشمل الدفعة الأولى من الموسّمين خمسة دبلوماسيين وهم :

• **السيد أحمد ونيّس** السفير السابق ورفيق درب رئيس الجمهورية وأحد المتخصّصين البارزين في العلاقات الدولية (الصنف الأول من وسام الاستحقاق الدبلوماسي)،

• **السيد محمود الخميري** السفير السابق في مسقط والقاهرة الذي اضطلع بمهام رئيس ديوان وزير الشؤون الخارجية ورئيس التفقدية والمدير العام الحالي لشؤون العالم العربي والعالم الإسلامي والذي ينتظر منه الإسهام في الإعداد الجيّد للقمّة العربية التي ستحتضنها تونس في السنة المقبلة (الصنف الثاني من وسام الاستحقاق الدبلوماسي)،

• **السيدة هُلّة باش طبجي** المديرة العامة للمنظمات والندوات الدولية المشهود لها بالكفاءة والتفاني في مختلف المسؤوليات التي كلّفت بها (الصنف الثاني من وسام الاستحقاق الدبلوماسي)،

• **السيد محمد كحلون** أوّل سفير لتونس بواقادوقو والذي استطاع في بضعة أشهر أن يضاعف حجم المبادلات التجارية بين البلدين (الصنف الرابع من وسام الاستحقاق الدبلوماسي)،

• **السيد إبراهيم الفوّاري** القائم بأعمال سفارة تونس بدمشق الذي يعمل بجدّ على رأس فريق محدود العدد من أجل الإحاطة بالجالية التونسية في سوريا والعناية بمختلف المسائل السياسية والاقتصادية الثنائية (الصنف الرابع من وسام الاستحقاق الدبلوماسي).

وعلمت ليدرز العربية أنّ الدفعة الثانية من الموسّمين ستشمل كلّا من :

• **السيدة سلوى البحري** سفيرة تونس السابقة في لشبونة وبوخارست وإحدى الكفاءات الدبلوماسية التي تميّزت طوال مسيرتها المهنية بالجدية والنجاعة في العمل،

• **السيد هيكل التليلي** الذي تولّى في مناسبتين مهام القائم بأعمال تونس ببغداد مبديا شجاعة كبيرة في تحمّل المسؤولية رغم الظروف الأمنية الصعبة في بلد الاعتماد، وفي توسيمه رسالة موجّهة إلى الدبلوماسيين الشبّان،

• **السيد فريد بلحاج**، وهو دبلوماسي سابق ونائب رئيس البنك الدولي حاليا، ومن خلاله يُراد تكريم كبار الموظفين التونسيين في المنظّمات والمؤسّسات الدولية.

هشام الفراتي على خطى والده

هشام الفراتي وزير الداخلية الجديد هو من خرّيجي المدرسة الوطنية للإدارة (المرحلة الثالثة) ومن الكفاءات الوطنية المعروفة بالجدية والتفاني في العمل . وقد شاءت الصدفة أنّ يقوم بتربّص في سنة 1995 في مجال الإعلام الاقتصادي بوكالة تونس أفريقيا الأنباء، أي في قطاع الإعلام الذي كان والده السيد حمّادي الفراتي واحدا من أبرز إطاراته حيث تحمّل فيه مسؤوليات سامية ، من بينها تولّيه مهامّ رئيس ديوان السيد الشاذلي القليبي والمرحوم مصطفى المصمودي. وقد بذل طوال مسيرته الإدارية من الجهود السخية ما جعله محلّ تقدير الجميع واحترامهم . وقد حرص السيد حمّادي الفراتي على الاستمرار في خدمة القطاع العام ولم يلتحق بقطاع السياحة الذي كان والده المرحوم الشاذلي الفراتي أحد أعمدته وبناته إلّا بعد بلوغه سنّ التقاعد. وقد سار الابن على خطى الأب في الجدية والاستقامة والانقطاع إلى خدمة الصالح العامّ ممّا أهّله لتبوّؤ منصب مهمّ وحسّاس في الدولة لا سيّما في هذا الظرف الدقيق الذي تمرّ به تونس.

قمّة منتدى التعاون الصيني الأفريقي
ببيكين من 4 إلى 6 سبتمبر القادم

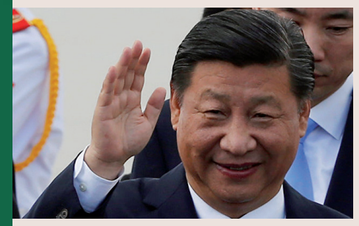

تنعقد ببيكين من 4 إلى 6 سبتمبر 2018 قمّة منتدى التعاون الصيني الأفريقي بمشاركة رؤساء دول وحكومات البلدان الأفريقيّة أو ممثليهم عنها تحت شعار : «لنبني معا مصيرا مشتركا صينيا - أفريقيا أكثر صلابة».

وتمثّل القمّة إطارا مهمّا لحوار جماعي بين الصين والدول الأفريقيّة قصد رسم مسار تنمية العلاقات المستقبلية بين الجانبين بما يجعل التعاون بينهما نموذجا للتعاون جنوب-جنوب. ومن بين أهداف هذه التظاهرة الدولية الكبرى تحقيق توافق بين موضوع القمّة والإنجاز المشترك للمبادرة الصينية التي عرفت اختصارا بـ «الحزام والطريق» وهي خطّة تتألّف من مجموعة كبيرة من المشاريع التي تستهدف إقامة شبكة من السكك الحديدية والطرق السيارة السريعة، ومدّ أنابيب غاز ونفط، وإنشاء شبكات كهرباء وإنترنت، وإحداث طرق ملاحة بحرية، وتطوير بنى تحتية في وسط آسيا وغربها وجنوبها بما يمكّن من تعزيز الربط بين الصين والقارة الآسيوية من ناحية وبين قارّتي أوروبا وإفريقيا من ناحية أخرى... وسيستغرق إنجاز جملة هذه المشاريع عدّة عقود قادمة أمّا كلفتها فتقدّر بين 4 و8 ترليون دولار. كما سيتمّ كذلك تنسيق مخرجات القمّة مع برنامج الأمم المتّحدة حول التنمية المستدامة في أفق 2030 وأجندا 2063 للاتحاد الأفريقي واستراتيجيات التنمية للبلدان الأفريقيّة قصد إعداد برامج تعاون تقوم على تشابك المصالح وتبادل المنافع.

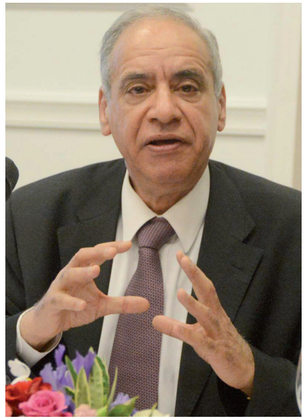

«المرآة والأفق، تونس التي نحلم بها» كتاب منتظر لتوفيق بكّار

دفع السيد توفيق بكّار محافظ البنك المركزي الأسبق إلى المطبعة بكتاب باللغة الفرنسية من المنتظر أن يصدر في منتصف شهر سبتمبر القادم يحمل عنوان : «Le miroir et l'horizon , la Tunisie rêvée» (المرآة والأفق، تونس التي نحلم بها). يدلي محافظ البنك المركزي التونسي الأسبق بشهادته عن الفترة التي سبقت الثورة ويتناول بالتحليل الأوضاع الحالية مبديا في الآن نفسه مقترحات لتجاوزها. ويقدّم الكتاب الذي يقع في 450 صفحة كريستيان دو بواسيو رجل الاقتصاد الفرنسي وعضو أكاديمية التكنولوجيات. في الجزء الأوّل من الكتاب بعنوان «المرآة» يستعرض توفيق بكّار مسيرته منذ الصغر ويرسم بورتريهات لشخصيات كان التقاها (مانديلا، القذافي...) ويروي أحداثا هامّة عاشها. ويبيّن بالخصوص كيف أنّ منوال التنمية الاقتصادية والاجتماعية كان في حاجة بداية من سنة 2006 إلى عملية ملائمة جديدة مع واقع البلاد والاقتصاد العالمي. أمّا في الجزء الثاني بعنوان «الأفق» فإنّ وزير التخطيط والماليّة ومحافظ البنك المركزي الأسبق يستكشف النوافذ التي تنفتح أمام البلاد ويستجلي آفاق المستقبل. ومن خلال هذا المؤلّف يستطلع القارئ رأي توفيق بكّار في الدور الذي اضطلعت به مؤسّسات دولية كالبنك الدولي وصندوق النقد الدولي بالخصوص في مجال التنمية بتونس بحكم تعامله مع هذه المؤسّسات في المناصب التي تقلّدها.

عمل تأريخي ضخم لمختار باي حول العائلة الحسينية من 1705 إلى 1957

يعكف مختار باي على وضع اللمسات الأخيرة لكتاب ضخم باللغة الفرنسية يؤرّخ لحكم العائلة الحسينية في تونس ويغطّي فترة زمنيّة تمتدّ على مدى أكثر من 250 سنة من 15 جويلية 1705 تاريخ قيام الدولة الحسينية على يد حسين بن علي إلى 25 جويلية 1957 تاريخ خلع آخر باي وهو محمّد الأمين وإعلان النظام الجمهوري . يخصّص الكاتب قرابة 2100 صفحة منها بين 1200 و1500 صفحة تجسّم الوقائع التاريخية بالوثائق والصور لاستعراض مختلف الحقب التي مرّ بها العرش الحسيني وذلك في كتاب فنّي من مستوى راق يصدر عن دار سينباكت . ويتوزّع هذا المؤلّف على ثلاثة مجلّدات يقع كلّ واحد منها في 700 صفحة تقريبا . يتناول المجلّد الأوّل الذي يصدر بعد ثلاثة أو أربعة أشهر رمزية العائلة الحسينية في حين يتطرّق المجلّد الثاني إلى الحياة العامة للبايات وإلى إدارتهم لشؤون البلاد (سلملك). أمّا المجلّد الثالث فهو يخوض في حياة البايات الحميمية من خلال الحديث عن الحريم (حرملك).

ويؤكّد مختار باي ، وهو سليل العائلة الحسينية (جدّه الأوّل أحمد باي الأوّل) إنّه حرص على التجرّد من العاطفة، متوخّيا تمشّيا علميا صرفا في القيام بهذا العمل من خلال التركيز على الحقيقة التاريخية دون سواها. والجدير بالذكر أنّ مختار باي حاصل على دكتوراه دولة في العلوم السياسية وعلى الدكتوراه في القانون من فرنسا وقد سبق له أن أصدر كتابين باللغة الفرنسية الأوّل عن حسين بن علي مؤسّس الدولة الحسينية والثاني حول بايات تونس من 1705 إلى 1957.

AUTOMOBILES ZOUARI
CONCESSIONNAIRE / SAV VÉHICULES DE TOURISME

INFOLINE :
70 130 130

TUNIS
Route de sousse GPI Km7 2033 - Mégrine
Tél : (+216) 70 130 070 - 70 130 060
Fax : (+216) 71 425 253

SOUSSE
Route de ceinture, 4022 Z.I. Akouda
Tél : (+216) 70 130 040 - 70 130 050
Fax : (+216) 73 343 233

SFAX
Route de Gabes, bvd de l'environnement,Km 2,5
Tél : (+216) 70 130 020
Fax : (+216) 74 281 020

GABES
Route de Tunis: Km 0,5 DP 31 - 6001 Hached
Tél : (+216) 70 130 090
Fax : (+216) 75 274 151

المـــســـاواة في الإرث

الدولة المدنيّة ونهاية الإسلام السّياسي؟

قطـــع رئيـــس الجمهورية التُفاحة نصفين، فمضى في مشروعه الرامي الى عـــرض تعـــديل مجلة الأحـــوال الشخصية على البرلمان، من أجل إقـــرار مبدإ المـــساواة في الإرث بين المرأة والرجـــل. لكنّه سيتـــرك الباب مفتـــوحا (في النـــص) لمـــن يـــريد الالتـــزام بأحكـــام الشريعـــة في هـــذا الباب، أي مـــن حـــقّ المواطـــن أنّ يُـــوصي بمنـــح الذكـــر مـــن الإرث كحّظ الأنثييـــن.←

بهذا

الموقف الوسطي تفادى التصادم مع أنصـــار حـــركة «النهضة» المُعارضين بشدّة لهذا التوجّه. غير أنّ عـــلاقات «التوافق» مع قيادة الحركة لن تكون، بعد هذه الواقعة، مثلما كانت قبلها. ويجوز القول إنّ الطرفين، رئيس الجمهورية و«النهضة»، سارا

TUNIS
2018-2019

تونس
عاصمة للمرأة العربية

Tunis Capital of Arab Woman
Tunis Capitale de la Femme Arabe

بخطوات تُرضي أنصارهما، ولو جزئيا، إذ ضمن الأوّل في احتفال 13 أوت دعما معنويا لمشروعه من أطياف المجتمع المدني (الحداثي)، وهو دعمٌ يفتح على رئاسيات 2019، إذ ستذهب مُخرجاته إمّا للرئيس الحالي أو لمرشّح آخر للحزب. وعلى أية حال فالواضح أنّ الرئيس الحالي أراد أنْ يُنهي عُهدته بخطة يُسجّلها له التاريخ أسوة ببورقيبة الذي كان أب مجلّة الأحوال الشخصية.

احتواء غضب القواعد

أمّا «النهضة» فعملت على إرضاء قواعدها بتوجيه «رسالة الاحترازات» إلى صاحب المبادرة، مع إطلاق العنان، في الآن نفسه، لبعض قواعدها المُتشدّدة للتظاهر ضدّ المشروع، فضلا عن تجنيد جيش من الفيسبوكيين للتصدي له والسخرية من صاحبه. والمُلاحظُ أنّ «النهضة» لو أرادت لحرّكت قطاعات أخرى من أنصارها ومن التيارات والتنظيمات المنسجمة معها في مسألة الميراث، مثل حزب التحرير والسلفيين. إلاّ أنّ حرصها الشديد على الظهور بمظهر الاعتدال أمام العالم الخارجي، جعلها تخشى من تقويض كلّ ما بنته، فهي ما انفكّت منذ 2011، وحتّى قبل ذلك، تقدّم شواهد الاعتدال والوسطية، ولذلك لا يمكن أنّ تمحو اليوم بموقف اندفاعي صورة سوّقتها على مدى سبعة أعوام، وهو الحرجُ الذي أشار إليه رئيس الجمهورية، حين قال إنّ الحركة تحاول أنّ تُثبت لنا وللخارج أنّها حركة سياسية ذات طابع مدني.

مع ذلك فإنّ التباعد في المواقف بين رئيس حركة «النهضة» ورئيس الجمهورية بلغ درجة من الاتّساع لم يشهدها من قبل، بدءا بالخلاف على ترحيل الحكومة الحالية أو إبقائها، مرورا بمحاولة «النداء» حجب الثقة عن وزير الداخلية الجديد، بُغية إرباك رئيس الحكومة، ثمّ الخلاف على مشيخة الحاضرة، وانتهاء بالخلاف على المساواة في الميراث، التي كانت القطرة التي أفاضت كأس التباعد بين مواقفهما. ولعلّ هذا التباعد يُذكّرنا بالصورة التي روّجها الرئيس الحالي في حملته الانتخابية من أنّ «النهضة» و«النداء» خطان متوازيان لا يلتقيان.

لا يحتمل الانتظار

والأرجح أنّ البون سيتسع إذا ما توقّفنا عند بعض مفاصل تقرير لجنة الحريات الفردية والمساواة، ومنها التنصيص على أنّ «المساواة في الميراث حــقّ لا يحتمــل الانتظــار» (ص 178)، وذلك بعدما لاحظ أعضاء اللجنة أنّ «المواريث نظامٌ متجمّدٌ» (ص 173). من هنا ينبغي توقّع عودة الحرب الباردة بين حليفي الأمس «النهضة» و«النداء»، كلّما اقتربنا من الاستحقاقين الانتخابيين المقبلين البرلماني والرئاسي. واستطرادا فالتجييش مُستمرّ مواكبة للمراحل التي سيمرّ منها مشروع القانون، الذي وعد رئيس الدولة بإحالته على مجلس نواب الشعب «قريبا».

هنا تبرزُ مسألة مسكوت عنها، وتتعلّق بقرار المؤتمر الأخير لحركة «النهضة» ترشيح رئيس الحركة للانتخابات الرئاسية المقبلة. وقد شكّل المرشّحُ فعلا فريقا خاصّا يشتغل منذ فترة على الإعداد للاستحقاق الرئاسي المقبل. ولعــلّ هذا سيكون أهمّ مُتغيّر في انتخابات 2019، قياسا على الانتخــابات الســابقة التي خــاضتها الحركة بحصــان مُستأجر وانتهــت بقطيعة.

القطيعة مُستبعدة

مع ذلك فالقطيعة بين «الشيخين» مُستبعدة، بل على العكس سيستمرّ الحوار و(الخلاف)، لكن مع الالتزام بمدوّنة سلوك مبنية على دوائر التقاطع، التي يخصّ بعضُها مصالح الدولة العليا واستتباب السلم الأهلي أو ارتباطات تونس الاستراتيجية. وما من شك في أنّ كلّ طرف سيستقوي بفصل من الدستور في حربه على الطرف الآخر، وتحديدا الفصل الأوّل (تونس دولة حرّة مستقلّة ذات سيادة، الإسلام دينها والعربية لُغتها والجمهورية نظامها)، والفصل 46، الذي أكّد أنّ «على الدولة أنّ تلتزم بحماية الحقوق المكتسبة للمرأة وتدعم مكاسبها وتعمل على تطويرها». ومردّ هذا التنازع على فقرات من الدستور إلى تناقض بعض فصوله مع فصول أخرى، نتيجة ظروف الاحتقان التي وُلد فيها، والتي أدّت إلى اعتماد أسلوب التلفيق والترضيات السياسية اللامبدئية.

هذا عن موقف رئيس الجمهورية، مثلما أعلنه في يوم المرأة، وعن موقف «النهضة» مثلما ورد في بياناتها ورسالتها إلى الرئاسة، فما موقف الآخرين في الركح السياسي؟ وهل مازال لهم من دور في توجيه الأحداث؟ في أعقاب الانتخابات البلدية اكتسى المشهد السياسي طابعا غير مألوف عُنوانه الجمود، بسبب انكفاء أجسام سياسية عدّة كانت ألسنتُها أطول من قاماتها، وأيضا بسبب الصراعات الداخلية التي تنخرها، والتي انتهت بحزب «آفاق تونس»، على سبيل المثال، إلى تفكّك هياكله واندثار كتلته البرلمانية. والأمثلة المشابهة كثيرة. وسنلحظُ أنّ تلك الأجسام ستتموقع مع «النهضة» أو مع «النداء» دون أنّ تكون لها القوة التنظيمية التي تبني عليها موقفا مستقلا، فضلا عن قدرتها على إيجاد خيار ثالث، وهو ما سيُعيد الساحة السياسية إلى المربّع الأول، مُربّع الاستقطاب الثنائي و«التصويت المُفيد»، الذي قتل الحياة السياسية وأفقد المواطن ثقته في مصداقية صندوق الاقتراع.

ر.خ.

برج الضيافة بصفاقس

لمن يبحث عن الطابع المميّز

ارتقى نزل برج الضّيافة بصفاقس وهو من فئة 5 نجوم إلى ترتيبه ضمن مجموعة «النّزل ذات الطّابع المميّز» Hôtel de Charme من قبل وزارة السياحة إقرارا بخصائصه الفائقة وتتويجا لمجهود تطويري مكثف. وتشترط الوزارة لمنح هذا التّرتيب العالي، المحافظة على المقوّمات المعمارية والتاريخية العريقة للبناية وإسداء خدمات مشخّصة تخضع لقواعد التّصرف الفندقي المحدّدة وذلك وفق القرار الوزاري المؤرّخ في 29 جويلية 2013.

كلّ هذه المتطلّبات وأكثر تتوفّر بامتياز في برج الضيافة الذي يقع على بعد 10 دقائق فقط من وسط المدينة والمطار في نفس الوقت وامتزجت هندسته المعمارية بالطّابع العربي الأندلسي وازدانت فضاءاته بتناغم المرمر مع النّقوش فيما أثرته قطع الأثاث الأصيلة والتّحف بجماليّة رائعة، وتبقى كلّ أرجائه على اختلافها، من مقهى ومطاعم وقاعات اجتماعات وغرف إيواء، في أبهى مظاهر الضّيافة. وبقدر ما يشتهر برج الضّيافة بحسن القبول وكرم الوفادة، فإنّ مطاعمه تقدّم أرقى الأكلات من اختصاصات صفاقسية أصيلة وأطباق إيطالية أوروبية وغيرها،يحرص على إعدادها أمهر الطّهاة. وتوفّر غرف برج الضّيافة الفسيحة الإقامة المريحة للأفراد بكلّ مرافق الرفاهة والخدمات، فضلا عن 60 شبكة تلفزيونية بستة لغات مختلفة والترابط بالانترنيت.

السرّ في برج الضيافة هو الحرص على أدقّ التّفاصيل والتّفاني في خدمة الزّائر وهو ما يثابر عليه كلّ العاملين في النزل، من الاستقبال إلى الإدارة العامّة، وفق معايير دولية حصلت على شهادة إثبات في الجودة من صنف ISO 9001 و ISO 22000 وتكمن دقة التفاصيل حتّى في تخصيص عون يتولّى ركن سيّارة الحريف بمأوى السيارات وأيضا مضيّفة تعتني باستقبال الحريف إلى حدّ إيصاله باب غرفته حيث وضعت على ذمته تشكيلة من الحلويّات الصفاقسيّة وسلّة فواكه طازجة وقارورة ماء معدني وكذلك نوعية موادّ عالية الجودة للتجميل والاستحمام، إلى جانب العديد من الخدمات المتميّزة الأخرى.

ومن المهمّ الإشارة إلى أنظمة السّلامة والحراسة التي أرساها النزل مما جعله الأكثر أمنا في الجهة، الشيء الذي يشجّع، فضلا عن الخدمات الراقية المسدات من قبل النزل، أكبر المؤسسات العالمية وكبرى شركات النفط على اختياره لإقامة أفرادها. للسياحة وللأعمال يبقى برج الضيافة، خاصّة بعد ارتقائه إلى مجموعة النزل ذات الطابع المميّز، الوجهة المثلى لكلّ من يزور صفاقس إذ ينعم بطيب الإقامة في فندق يجمع بين التراث المعماري الأصيل ورفاهة الغرف، ومرافق قاعات الاجتماعات وألذّ الأطعمة والأكلات.

برج الضيافة نزل ذو طابع مميز
طريق سكّرة كلم 3 - 3052 صفاقس
الهاتف: 777 677 74 216+
الفاكس: 777 676 74 216+
sfax@hotelborjdhiafa.com

برج الضيافة
Borj Dhiafa
HÔTEL DE CHARME

تـآكلُ الطبقة الوسطى يُهـمّـــشُ دورها السياسي

• بقلم رشيد خشانة

تمحي من تونس تدريجيا أو تكاد، المسافة بين الطبقتين الوسطى والفقيرة، نتيجة الارتفاع المتزايد لكلفة العيش وتوسُّع رقعة البطالة، فيما ترعرعت فئة طفيلية جديدة يمكن وصفُها بالثرية جدًا. وبات واضحا اليوم أنّ التقسيم الاجتماعي التقليدي : طبقــة ثرية/ طبقة وسطى/ طبقة مُعوزة، انقلب إلى معادلة جديدة أقرب إلى : طبقة ثرية/ طبقة ثرية جدًا/ طبقة مُعوزة. هذا الانزلاق تُؤكّده أرقام المعهـد الوطني للإحصاء، التي أفادت أنّ الفقــر أصبح يشمل 1.7 مليون تونسي، مـن ضمنهـم 300 ألـف مواطن يعيشـون تحت خط الفقر.

أكثر من ذلك كشفت وزارة الشؤون الاجتماعية في 2011 أنّ رُبع السكان تقريبا يعيشون تحت خط الفقر، بعدما كانت أرقام النظام السابق تقصر مساحتهم على 4 في المائة من السكان فقط. أمّا عن التوزيع الجغرافي للفقر حاليا، فتُحدّد إحصاءات المعهد الوطني مناطق تمركزه في الشمال الغربي، الذي أتى في المرتبة الأولى بنسبــة فقر تتجاوز 28 في المائة، وفي إقليم تونس الكبرى حيــث تتجاوز نسبة الذيــن ضــربهم سيف الفقر 5 في المائة من السكّان.

الطبقة الوسطى رهانٌ سياسيٌ

وأظهر الجدل الواسع الذي دار في الخريف الماضي، حول موازنة 2018، وما رافقها من توسيع قاعدة الضريبة على الدخل، أنّ تضعضُع الطبقة الوسطى انتقل من مُتغيّر اجتماعي إلى رهان سياسي. فلم يكن خافيا على أحد أنّ جميع شرائح الطبقة الوسطى شعرت بالضيم من قانون المالية الجديد، ممّا يعني أنّها تتحوّلُ تدريجيا، من قوّة داعمة للدولة، إلى قوّة غاضبة. ومن ثّم يسعى كلّ طرف إلى استرضائها ومغازلتها. ونلمح اليوم استمرارا لتلك الإغراءات بأشكال مختلفة من الإغواء، في أفق الاستحقاقات الانتخابية المقبلة. غير أنّ العزوف الكبير عن التصويت في الانتخابات البلدية برهن على إخفاق تلك الإغراءات. وفي هذا السياق لاحظ التقرير الأخير لمجموعة الأزمات الدولية International Crisis Group أنّ العزوف عن التصويت في الانتخابات البلدية، الذي تجاوز 66 في المائة، يشكّل تسفيها لكامل الطبقة السياسية، بما فيها «النداء» و«النهضة».

مــع ذلك تستمــرّ المراهنة على الطبقة الوسطى كمشروع سياسي تاريخي بالأساس، وإن كان موقفُ هذه الطبقة في 2011 غير موقفها في 2014، وسيختلف أيضا في 2019. ونلمحُ منذ انتخابات المجلس التأسيسي إلى اليوم تدحرجا جعل تلك الطبقة الوسطى، التي راهنت على حزب «النهضة» وحليفيه، تشعر بالندم وتنضمّ (أو في الأقل شرائح منها) إلى المطالبين برحيل «الترويكا». وكان مُتوقّعا بعد مرارة تلك التجربة، أن تندفع في انتخابات 2014، كما حركة الساعة الحائطية، إلى الزاوية المقابلة، فتمنح مُباركتها لـ«نداء تونس» بقضِه وقضيضه، بأمل وحيد هو قطع الطريق أمام عودة «الترويكا». وإذا ما تابعنا الخط البياني سنلحظُ أنّ المنحنى استمرّ في النزول مع الانتخابات الجزئية في ألمانيا، وخاصّة إبّان الانتخابات البلدية الأخيــرة، بسبب تضاؤل الاقتناع بجدوى المشاركة.

شكوى ونقمة ووعيد

الظاهــر أنّ لســان حــال الطبقة الوســطى يلهــج اليــوم بخطاب هــو مزيج مــن الشكوى والنقمة والوعيد للسياسيين، وإن كان حزب «النهضة» يعتمد على النصر الذي حقّقه ليعتبر نفسه غير معني بالتصويت العقابي. إلّا أنّ كّل الدلائل تشير إلى أنّ ذلك النصر لم يكن ثمرة خيار طوعي مــن المُقترعين، بقــدر ما كان ثمرة انضباط جهاز لا تملك الأحزاب الأخرى مثيلا له، مُعزّزا بجمعيات وشبكات عنكبوتية تُدير موازنات ضخمة لا تُسأل عن مصدرها.

بتعبير آخر كان الحافز لدى منح الصوت للنهضة حافزا إيديولوجيا، وأكاد أقول إيمانيا، قبل أن يكون انحيازا للون سياسي، وبناء على إدراك فعلي للفوارق بينه وبين الألوان الأخرى. واستطرادا، مازالت الطبقة الوسطى، التي لا تشاطر عموما النمط المجتمعي الذي تُبشّر به «النهضة»، شاعرة باليُتم، لأنّها لا ترى في الضفّة المقابلة، قوّة حقيقية ومُنظّمة تحظى بالمصــداقية، وتستأهل منحها الثقة. من هنا يأتي إمساك شريحة واسعة منها عن الذهاب إلى مكاتب الاقتراع، وهي ظاهرة قد تتفــاقم في الاستحقــاقات المقبــلة، لأنّ الطبقــة الوســطى تشعر بكونها خُـدعــت في 2011 و2014.

ولا أدلّ على ذلك من أنّ «نداء تونس» خسر في الانتخابات البلدية ثُلثي الذين منحوه أصواتهم في 2014، فيما خسرت «النهضة» نصف عدد المُقترعين لها في تلك الانتخابات.

برجوازية صغيرة

تفكّكُ الطبقة الوسطى وذوبانُها التدريجي في بلد مثل تونس، بعدما كانت قطب الرحى في الحياة الاجتماعية والثقافية والسياسية، مرادفٌ لكسر العمود الفقري للمجتمع. وبعدما كان المُنظرون اليساريون يُصوّرون الطبقة الوسطى (أو «البرجوازية الصغيرة») على أنّها طبقة محافظة وانتهازية ورجعية، ويعقدون كلّ آمالهم على البروليتاريا، التي اعتبروها القوّة الثورية الأولى في المجتمع، نرى اليوم كيف أنّ الطبقة الوسطى التونسية، هي التي قادت التغييرات السياسية والاجتماعية الكبرى، على مدى ستة عقود، بل حتّى خلال الحقبة الاستعمارية، وأنّ الفقراء، في المقابل، هم المحافظون،

لا بل كثيرا ما يستخدمهم الأثرياء الجدد والوصوليون حطبا لكسب معاركهم.

وقد ارتبــط نشــوء الطبقة الوســطى في بلادنا ونُمُــوّها ارتبــاطا وثيقا بالدولة، فهي بانيةُ مؤسّسات الدولة اليــافعة ومُبلورةُ رؤاها وخياراتها الكبرى، وباختصار هي الدولة. وفي الحقبة الجديدة بعد 2011، ظلّت تبحــث عمن تأهــل من الأحزاب أكثر مــن سواه لكي يحمل المشروع المجتمعي، الذي أرستهُ منذ بواكير الاستقلال، لكن لا جسم «النهضة» اتسع للبدلة ذات المظهر الحــداثي، على الرّغم من كلّ «التنازلات»، ولا «النداء» (بمشتقّاته) برهن على أنّه حقيق بذلك الإرث.

ر.خ.

كيف نحمي أطفالنا من فضاءات التنشئة العشوائية ؟

منذ سنة 2011 ، وعند انطلاق كلّ سنة دراسية جديدة ، وفي ظلّ ضعف سلطة الدولة، تطرح مسألة مهمة في الشأن التربوي التونسي تتعلق بالتربية قبل الدراسة (أطفال الشريحة العمرية من 3 إلى 6 سنوات) و تطفو على السطح في هذا الصدد عديد المشاكل مثل ارتفاع معاليم التسجيل، و قلّة عدد نوادي التنشيط المختصّة بالأطفال وتدنّي الخدمات وضعف المراقبة وتواصل انتصاب الفضاءات العشوائية خارج القانون وفي عدّة جهات وخاصة تلك التابعة لجمعيات دينية أو ما يسمّى بالرّوضات القرآنية وذلك رغم الإجراءات التي اتخذتها الإدارة لتطوير القطاع والتصدّي لهذه الظاهرة وحماية أطفالنا منها وإنقاذهم مما قد يؤثر سلبا في بناء شخصيتهم . فكيف تبدو الوضعية اليوم ؟ وهل لا تزال تلك الفضاءات تمثّل خطرا على تنشئة أطفالنا ؟

يشمل قطاع التربية «قبل المدرسية» المحاضن ورياض الأطفال التي تشرف عليها وزارة المرأة والأسرة والطفولة وكبار السن، والكتاتيب التي تشرف عليها وزارة الشؤون الدينية ، وضمنها نذكر أيضا المحاضن المدرسية والسنة التحضيرية وكذلك محاضن ورياض الأطفال التي تشرف عليها بلديات أو وزارات أو جمعيات . وقد انتشرت تلك الفضاءات في الوسط الحضري في المدن الكبرى خاصّة وبصورة أقلّ في المناطق الأخرى لتلبّي أساسا حاجة العائلة التونسية إلى فضاءات متخصّصة تمكّن أطفالها من تنشئة سليمة وتكوين يعدّهم للاندماج في المدرسة وحاجتها كذلك إلى فضاء يحافظ على أطفالها أثناء غياب الوالدين عن البيت للعمل في الوظائف العمومية أو الخاصّة. لكن رغم هذا التنّوع في الفضاءات فإن الإحصائيات الرسمية تؤكّد أنّ التحاق الأطفال بتلك المؤسّسات القانونية يظلّ ضعيفا . ونظرا لقلّة المحاضن ورياض الأطفال القانونية التي يبلغ عددها 4745 مؤسّسة (2016 – 2017) نلاحظ أنّ عدد الأطفال الذين يؤمّونها لا يتجاوز ثلث الأطفال وقد يقلّ في المناطق الريفية والداخلية. فمن بين 578234 طفلا تتراوح أعمارهم بين 3 و5 سنوات نجد فقط 174945 طفلا مرسّما في تلك المؤسّسات أي بنسبة تغطية يقدّر بـ 31,50 % (حسب الإحصائيات الرسمية لسنة 2016) أي أنّ 6 من بين 10 أطفال لا يلتحقون بالتربية قبل المدرسة وغالبا ما يكونون من المناطق الداخلية أو المهمّشة لأنّ خريطة توزيع المؤسّسات القانونية التي تعتني بالطفولة غير عادلة، إضافة إلى ما تشكو منه تلك المؤسّسات من نقص في الإطارات المتخصّصة إذ أن حوالي 60 % من العاملين في رياض ومحاضن الأطفال ليسوا متخصّصين في الطفولة المبكّرة. وبسبب مخالفة بعضها لكراس الشروط أو تردّي الخدمات والأوضاع الصحية أو سوء معاملة الطفل فقد أغلقت وزارة المرأة والأسرة والطفولة وكبار السنّ منها 23 مؤسّسة سنة 2017.

الفضاءات العشوائية

وتتمثل المعضلة الكبرى في انتصاب الفضاءات العشوائية في مختلف الجهات وإن كانت اليوم في تناقص بفضل تصدّي الإدارة لها عملا بتوصيات مجلس الوزراء المنعقد سنة 2013 وبمنشور رئاسة الحكومة الصادر في الغرض سنة 2014 والذي يدعو إلى غلق المؤسّسات المخالفة وإيقاف نشاط المؤسّسات الفوضوية بكلّ أنواعها والقرار المشترك بين وزارة المرأة ووزارة الداخلية الصّادر بتاريخ 20 اوت 2014 حول إحداث لجان جهوية تضمّ ممثّلين عن كلّ المتدخّلين في هذا الشأن كوزارات المرأة والتربية والشؤون الاجتماعية والصحة والداخلية والشؤون المحليّة لمتابعة ورصد تلك الفضاءات الفوضوية باعتبارها تمثّل تهديدا مباشرا للطفل ورفع تقريرها إلى الوالي الذي يتولّى إصدار قرار الغلق . وتذكر السيدة نبيهة كمون التليلي رئيسة الغرفة الوطنية لرياض ومحاضن الأطفال أنّ تلك اللجان لا تعمل بنفس الوتيرة ففي مناطق تكون نشيطة وفي مناطق أخرى تعمل ببطء لذلك ورغم المجهودات المبذولة لم يتم غلقها جميعا . ويذكر أنّ الفضاءات غير القانونية كما يعرفّها السيد سمير بن مريم مدير التفقد البيداغوجي بوزارة المرأة هي كلّ الفضاءات التي تستقطب الأطفال على غير الصيغ القانونية ولا تطبّق البرنامج البيداغوجي الرسمي، وتعمل - وفي إطار الانفلات- تحت عدّة تسميات لاستقطاب الأطفال والعائلة مثل روضات الجمعيات أو ما يسمّى بالروضات القرآنية التي تعمل على

• إعداد: خالد الشّابي

استقطاب الولي والطفل ولعدّة جمعيات منها فروع في الجهات للقيام بنفس العمل. وهناك تلك التي تنشط تحت غطاء تجارب أجنبية كالروضة الكندية أو الفنلندية أو مونتيسوري التعليمي وغيرها. وهدف تلك الفضاءات إمّا مادي أو ديني. وتصنّف السيدة نبيهة كمون التليلي تلك الفضاءات إلى صنفين: الرياض القرآنية والروضات العشوائية وليس لكليهما أي وجود قانوني لكن يضطرّ الولي التونسي الى التعامل معها بسبب معاليمها المقبولة عموما. أما مقرّاتها فقد تنتصب حسب السيدة نبيهة كمون التليلي في المنازل أو المستودعات بينما قد يتبع بعضها جمعيات قرآنية توّفر لها الفضاء حسب وزارة المرأة. وتوجد تلك الفضاءات العشوائية في الأحياء الشعبية كما في الأحياء الراقية .وتستقبل ما بين 20 إلى 50 طفلا في الفضاء الواحد. وخطورتها تكمن حسب السيد سمير بن مريم في أنّ الإدارة لا تعرف تماما ما الذي يمرّره المنشط فيها للطفل في سنّ تكوين شخصيته لأنّها لا تعتمد البرامج الرسمية وخاصّة إذا كان هدفها دمغجة الطفل كما تعتمد إطارات غير مختصّة إضافة إلى المربيات المنقّبات ممّا يحرم الطفل من رؤية وجه مربيته ويفتقر الفضاء المخصّص إلى عناصر السلامة. وتتساءل السيدة نبيهة كمون التليلي كيف لمن لا يحترم القانون ولا يحبّ الوطن أن يربّي الأطفال على الالتزام بالقانون وحبّ الوطن.

الكتاتيب فضاءات رسمية

وهناك فضاء آخر يساهم في تنشئة الأطفال بين سنّ 4 و6 سنوات فيه أيضا دخلاء وهو الكتاتيب. والكتاتيب حسب المسؤول عن الكتاتيب في وزارة الشؤون الدينية هي تسمية رسمية لا تطلق إلّا على الفضاءات المرسّمة التي تنشط رسميا في مسجد أو جامع أو زاوية أو في فضاء تابع لوزارة الشؤون الدينية وتحت إشرافها وتخضع للمتابعة من الوعاظ. ويؤكد المسؤول عن كتاتيب أنّ الفضاءات التي تّم اكتشافها منذ سنة 2012 و2013 وكانت تنشط في بيوت أو مستودعات أو غيرها على أساس أنّها ،كتاتيب تحفّظ القرآن الكريم أو السنة النبوية الشريفة للأطفال تبقى فضاءات عشوائية وتّم اتّخاذ الاجراءات القانونية في شأنها. ملاحظا أنّ الوزارة دائما متيقّظة لمحاربتها إن وجدت. وأشار إلى أنّ الكتاتيب الرسمية التي يكتب على واجهتها روضة قرآنية يتّم استجواب المؤدب المسؤول عن ذلك. كما بيّن أنه اكتشفت حالات قليلة لكتاتيب استقبلت أطفالا دون سنّ الرابعة فتمّ استجواب المؤدب المخالف. ومن جهة أخرى تدعو وزارة الشؤون الدينية الأولياء إلى التشبّع بثقافة الكتاتيب الرسمية التي يتراوح معلوم التسجيل فيها بين 20 و30 دينارا وتستقبل أبناء العائلات المعوزة بدون مقابل. وينشط في تونس 1720 كتّابا رسميا يستـــوعب حـــوالي 49 ألـــف طفل (2017 – 2018). وتوجد الكتاتيب في الأحياء الشعبية وفي الأحياء الراقية ويعمل المؤدب وفق برنامج رسمي تّم وضعه في دليـــل مرجعي مبني على الدستور التونسي وعلى مجلّة حقوق الطفل وأعدّ بالتنسيق مع وزارتي التربية والمرأة ومن أهداف البرنامج تمكين الطفل من حفظ نصيب من القرآن الكريم والأحاديث النبوية والتشبّع بالأخلاق والمبادئ والتواصل مع الآخر والدافعية وحبّ الاطلاع وإنماء الانتباه والاستقلالية وروح المبادرة لديه وتدريبه على النقد والتقييم الذاتي والإبداع. ومن بين الأنشطة التي يوفّرها الكتّاب أنشطة منطقية رياضية وإيقاظ علمي وأنشطة يدوية تشكيلية ومسرحية وغيرها..

أسباب تفشّي ظاهرة الفضاءات العشوائيّة

ومن أسباب تفشي ظاهرة الفضاءات العشوائية حسب السيدة نبيهة كمون التليلي عدم وجود رياض أطفال حكومية مجانية وبالعدد الكافي ومنضوية تحت المنظومة وكذلك عدم مدّ يد المساعدة للقطاع الخاصّ الذي أخذ على عاتقه مسؤولية تأطير الأطفال في سنّ مبكّرة. وتؤكّد السيدة نبيهة كمون التليلي أنّها اكتشفت أنّ من بين ما يدرّس للأطفال في تلك الروضات عبارات مثل من هو الطاغوت أو للطواغيت خمسة رؤوس أو الحجاب واجب وعدم التحجّب من الكفر وعذاب القبر ... كما لاحظت أنّ منها من يفرض اللباس الطائفي على الأطفال في حين ترتدي المنشطة النقاب. ويذكر أنّ وزارة المرأة أصدرت مذكّرات تمنع اللباس الطائفي في الروضات كما علّقت إسناد التراخيص للجمعيات الباعثة لرياض الأطفال (جويلية 2015). ويعتبر أيضا النقص في نسبة التأطير سببا من أسباب انتشار الفضاءات الفوضوية في ظلّ ضعف السلطة ونقص المراقبة فكانت نتائجها وخيمة إذ شهدت بعض المحاضن ورياض الأطفال العشوائية التي يسيّرها أشخاص لا علاقة لهم بالمهنة عدّة مآس كان ضحيّتها أطفال أبرياء دفعوا ثمن الإهمال في تلك المؤسّسات وغياب الكفاءة والقدرة على التعامل مع الأطفال في تلك السنّ نذكر منها اغتصاب طفلة 3 سنوات من طرف أحد العاملين في روضة عشوائية في جهة المرسى سنة 2013 ووفاة طفل 7

إشـكـالات و نـقـائـص

من الإشكالات و النقائص التي أمكن رصدها في ما يخص فضاءات تنشئة الاطفال نشير بالخصوص الى:

- النقص في المراقبة البيداغوجية بسبب النقص في إطار التفقد والإرشاد البيداغوجي
- ارتفاع الضرائب التي يدفعها اصحاب المؤسّسات الخاصّة
- العجز عن تنفيذ قرارات الغلق بالنسبة الى المؤسّسات المخالفة
- تقلّص عدد المؤسّسات العمومية المختصّة
- ارتفاع معاليم التّسجيل في المؤسّسات الخاصّة وعدم خضوعها الى الرقابة
- عدم التزام المؤسّسات الخاصّة بالبرامج الرسمية.

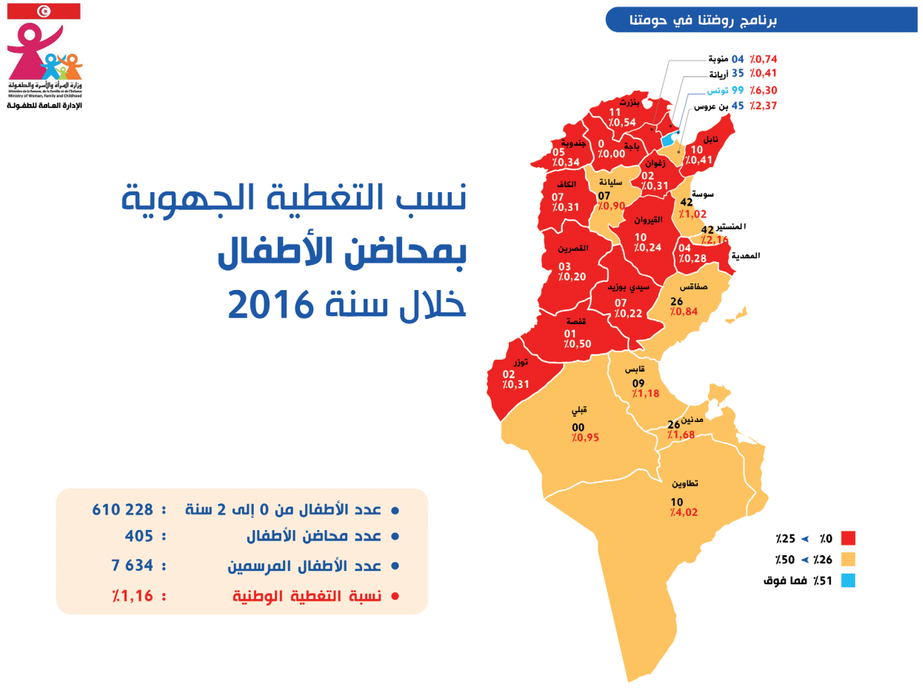

نسب التغطية الجهوية بمحاضن الأطفال خلال سنة 2016

- عدد الأطفال من 0 إلى 2 سنة : 610 228
- عدد محاضن الأطفال : 405
- عدد الأطفال المرسمين : 7 634
- نسبة التغطية الوطنية : 1,16٪

متابعة الفضاءات الفوضوية

السنة التربوية	عدد الفضاءات الفوضوية التي تمّ رصدها	عدد قرارت الغلق الصادرة	عدد المؤسّسات التي بصدد تسوية الوضعية
2016 - 2015	1057	684	141
2017 - 2016	380	265	67

شهور في دار حضانة بجهة أريانة مختنقا سنة 2014 ووفاة رضيعين في محضنة عشوائية بجهة صفاقس سنة 2015 وفي نفس السنة أصيب 14 طفلا جرّاء سقوط جزء من سقف محضنة مدرسية في جهة بنعروس. ونظرا إلى أنّها حرب متواصلة ضدّ تلك الفضاءات شدّد السيد سمير بن مريم على ضرورة وعي الجميع بهذا الخطر و تكاتف جهود كلّ الأطراف وخاصّة من ناحية إشعار اللجان الجهوية بأي تجاوز أو تهديد يمسّ سلامة الطفل ذلك أنّه كلّما وصل وزارة المرأة إشعار تدّخلت فورا. لذلك تمثّل الإشعارات الواردة عن طريق الهاتف والشكاوى، ووسائل التواصل الاجتماعي من أهمّ آليات رصد الفضاءات الفوضوية إضافة إلى دوريات التفّقد والإرشاد البيداغوجي والمسح الجهوي لمؤسّسات الطفولة (المندوبية الجهوية لشؤون المرأة و الأسرة).

روضتنا في حومتنا

ولإصلاح هذا الوضع أعدّت وزارة المرأة خدمات التربية ما قبل الدراسة ذات جودة لتجميع وتقييم المعطيات الخاصّة بها ووضع برنامج التربية الوالدية مما سيساهم في النهوض بالممارسات العائلية والسلوكات الإيجابية للأولياء تجاه أبنائهم. ولعّل هذا القانون يعطي لرياض الأطفال ولمؤسّسات الطفولة عموما الأهميّة المرجوة وتستعيد به الدولة دورها في هذا القطاع.

المؤسّسات الخاصة : معاليم مشطّة

لقد أسال هذا القطاع لعاب عديد المستثمرين الذين وجدوا فيه الفرصة للرّبح السريع والمضمون والفوري خاصّة وأنّ معاليم التسجيل في المحاضن و المحاضن المدرسية والرّياض لا تخضع لأيّ رقابة .صحيح أن تلك المؤسّسات الخاصّة توفّر للولي خدمات ذات جودة عالية وفضاءات للأنشطة مجّهزة تجهيزا عصريا ومربيّات متكّونات وأنشطة مختلفة ونقل مدرسي ورقابة عادة صارمة ومساحات خضراء إلا أنّه مقابل ذلك يدفع الولي مبالغ مشطّة تبدأ بالمعلوم الشهري الذي يتراوح في معدّله بين200د و 400 د في الشهر للطفل الواحد وتزيد عن ذلك في عدّة مؤسّسات تعتبر خدماتها هي الأرقى. ويدفع الولي للمؤسّسة 10 أشهر كاملة إضافة إلى معلوم التسجيل والتأمين والذي يتكلّف على الولي معلوم شهر آخر في المعدّل هذا إضافة إلى أنّ كلّ نشاط إضافي تنظّمه المؤسّسة يكون مدفوع المعلوم كالموسيقى والرسم والمسرح والرياضة ... وفي النهاية فإنّ كلّ خدمة تقدمها المؤسّسة هي بمقابل ونظرا لغياب التشريعات في هذا المجال فإنّ أصحاب تلك المؤسّسات يستغلّون فرصة حاجة الأولياء إليهم ويكسبون منهم الأموال الطائلة التي لا تتناسب وما يقدّمونه للأبناء من خدمات.

دور الولي سلبي

ما يلاحظ عموما في ردّة فعل الولي حول الفضاءات العشوائية أنّها سلبية لذلك من الضروري توعية الأولياء بأنّ تلك المؤسّسات تهم الأطفال في سنّ 3 إلى 5 سنوات وتكرّس لإنصاف و تأخذ في الاعتبار كافة الأطفال دون تمييز في جميع الجهات تحت شعار «روضتنا في حومتنا». ممّا سيسمح بالترفيع في نسبة الالتحاق بمؤسسات التربية ما قبل الدراسة والحد من انتشار الفضاءات الفوضوية التي تهدّد أطفالنا . وتشمل هذه الخطّة دعم أبناء العائلات المعوزة وفاقدي السند للانتفاع بتلك الخدمات وقد بلغ عدد الأطفال المستفيدين 3000 سنة 2017 – 2018 في 8 ولايات في انتظار أن يرتفع العدد إلى 4445 طفلا بداية من 2018 – 2019 في عشر ولايات هي الكاف والقصرين والقيروان وسيدي بوزيد وجندوبة وسليانة وزغوان وباجة وتطاوين وأريانة. ويذكر السيد سمير بن مريم أنّ الدولة خصّصت لأبناء العائلات المعوزة سنة 2018 اعتمادات تقدّر بـ مليوني دينار توّفر لهم خدمات ما قبل المدرسة مجانا وعلى كاهل الدولة كما تعمل الوزارة منذ 2014 على إعادة الروح إلى الروضات البلدية للترفيع في نسبة التغطية وتقريب الخدمات للعائلات وتحسين جودة الخدمات بمؤسّسات التربية قبل الدراسة ووضع نظام معلوماتي

محاضن ورياض الأطفال القانونية 2016 - 2017

المؤسّسة	عدد رياض الأطفال				المجموع	عدد الاطفال	نسبة التغطية
	بلديات	وزارات	جمعيات	خواص			
محاضن الأطفال	1	0	0	404	405	610228	1.16
رياض الأطفال	52	24	305	3968	4349	174945	31.50

الخروقات والتجاوزات في الفضاءات العشوائية

عديدة هي الخروقات و التجاوزات المسجلة في الفضاءات العشوائية لتنشئة الاطفال نذكر منها ما يلي :

- العمل بدون ترخيص
- عدم احترام البرامج الرسمية
- عدم التقيّد بعدد الأطفال المحدّد في كل قاعة للمنشّط الواحد
- دمج فئات عمرية مختلفة في نفس الفضاء وخاصة عندما تحتضن بعض الروضات تلاميذ في الابتدائي كحضانة مدرسية
- عدم الالتزام بكراس الشروط وخاصة البنية الأساسية ومساحة الفضاء الخارجي المخصّص للتنشيط والمساحة المخصّصة لكلّ طفل داخل قاعة التنشيط
- تجاوز طاقة الاستيعاب المرتبطة أصلا بمساحة الفضاء
- نقص الموارد البشرية اللازمة من حيث الكفاءة
- عدم قبول الأطفال حاملي الإعاقة رغم أن القانون الحالي الصادر سنة 2009 يسمح بذلك بل ويدعو المحاضن الى قبولهم وتوفير الرعاية اللازمة لهم.
- وقلة العناية الصحية وغياب النظافة
- عدم استقرار الطاقم الإداري والمنشّطين ممّا ينعكس سلبا على الجانب الوجداني للطفل.

مقترحات للحدّ من ظاهرة الفضاءات العشوائية

- التصدّي لظاهرة الفضاءات المفتوحة تحت غطاء المدارس أو الجمعيات القرآنية
- فتح الفضاءات العمومية للاستغلال مجانا لفائدة الأطفال وبرمجة أنشطة ترفيهية وثقافية ..
- فتح الإعلام العمومي أمام البرامج الموجهة إلى الطّفل وتكثيفها منها بإشراف مختصّين قصد توعية الأولياء
- تكفّل الدولة بمعاليم رياض الأطفال الرسمية بالنسبة الى الأطفال من عائلات معوزة أو ضعيفة الدخل والزيادة في عدد الروضات البلدية بمقابل معقول للفئة المتوسطة
- تفعيل دور العمد القادرين على الكشف عن الفضاءات العشوائية في الجهات وخاصة في المناطق النائية
- إعفاء اصحاب المؤسّسات الخاصّة
- مساعدة الباعثين على إنجاز مشاريع رياض الأطفال بمنحة تقدّر بـ 20 % أو 25 % لإنجاز المشروع
- تمكين الولي من منحة يستغلّها في تسجيل ابنه في الروضة لتضمن الدولة لكل طفل تكوينا قبل الدراسة.
- تخصيص ميزانية للطفولة المبكرة تتناسب مع عدد الأطفال في سنّ التربية قبل المدرسية ما بين 2 إلى 6 سنوات
- إنجاز دراسات علمية لمعرفة الأسباب الدقيقة وراء اختيار الأولياء لما يسمى بالرياض القرآنية العشوائية رغم وجود الكتاتيب الرسمية والتعريف بمخاطرها المختلفة وتوعية الولي بخطورة تلك الفضاءات على تنشئة طفله.
- إنجاز دراسات حول مدى اندماج هؤلاء في المدارس الابتدائية وهل لديهم مشاكل نفسية وكيف هو تحصيلهم العلمي.

تضرّ بأطفالهم وتهدّد توازنهم النفسي. ورغم تولّي بعض الأولياء التبليغ عن المؤسّسات العشوائية أو التي ترتكب فيها تجاوزات فإن دورهم في مقاومة الإخلالات لا يزال سلبيا.

فالولي هو الذي يختار الفضاء دون العودة إلى القوائم الرسمية لمؤسّسات الطفولة المرخّص لها التي تصدرها الوزارة وقد يلاحظ فيه تجاوزات في التأطير أو التنشيط أو تردّي الخدمات لكن يجد نفسه مجبرا على الصمت إمّا بسبب انخفاض معلوم التسجيل في الفضاء أو لقربه من محلّ السّكنى أو من عمله أو عمل الزوجة وأحيانا بسبب «الدمغجة» التي يتعرّض لها هو أيضا من قبل المشرفين على الفضاء لإقناعه بجودة التكوين. لذلك تعمل وزارة المرأة حسب السيد سمير بن مريم على توعية الأولياء بأهمية التربية ما قبل الدراسة في تكوين أبنائهم.

وقد أكّدت دراسة لمنظمة اليونسيف أنّ أغلب المنقطعين عن الدراسة في التعليم المدرسي هم غالبا من الذين لم يسجلوا يوما في رياض أطفال أو في المؤسّسات القانونية التي تعنى بتنشئتهم.

وخلاصة القول، إن انحراف الفضاءات - التي من المفروض أنّها حامية للطفل - عن مهامّها الأساسية التي يحدّدها لها القانون وعن البرامج الرسمية ليمثّل خطرا لا يزال يهدّد أطفالنا إن كانت تلك التجاوزات ذات بعد تجاري أو بعد إيديولوجي أو غيره.. لذا فإنّ اليقظة تبقى قائمة حتّى القضاء التّام على كلّ الفضاءات العشوائية. وتبقى النصوص القانونية الجديدة والإجراءات المتّخذة والتي ستتّخذ في هذا المجال خطوة هامة نحو النجاح في هذه المهمة لكن النجاح لا يكون كاملا إن لم يتمّ توعية الولّي بشتّى الطرق لأنّه في النهاية هو صاحب قرار تسجيل طفله في هذا الفضاء القانوني أو ذاك الفضاء العشوائي.

خ.ش.

«سؤال المرأة» في الزمن المُعَوْلَم

• بقلم د. احميده النيفر
رئيس رابطة تونس للثقافة والتعدّد

1- نقرأ بكثير من الاستغراب في كتاب البيان والتبيين للجاحظ (ت 255هـ/ 868م) قولَه «لا تَدَعْ أُمَّ صبيّكَ تضربُهُ فإنّه أعقلُ منها وإن كانت أسنَّ منه». أنْ تصدرَ هذه العبارات من مفكّر وأديب في مثل مقام الجاحظ أمر يستدعي النظر، فكيف يمكن أن نفهم حديثه هذا؟ هل يتعلّق بالجارية التي يعاشرها سيِّدُها فتنجبَ منه ومع ذلك فهو لا يرى لها من قيمة تُذكر مقارنةً بابنه الصغير؟ أم أنّ المقصود هو ضرورة تجنّب ضرب الأبناء لأنّ عواقبه وخيمة كما قال ابن خلدون «من كان مُربّاه بالعسف والقهر من المتعلّمين، حمله على الكذب والخبث؟»

2- قد لا يكون المعنى سوى ما يدلّ عليه ظاهر اللفظ أي أنّ الجاحظ ينتقص عموم النساء ولا يرى لهنّ من فضل في التربية؛ كما أنّه يمكن أن نحمل عبارة مؤلف كتاب «البخلاء» على غير محمل الجدّ وأنّه من قبيل الهزل الذي يستعمله، هو وبعض الكتّاب، عند معالجة القضايا الهامة قصد إبراز ما خفيّ من التناقضات وما دقّ من التباينات ليكون الهزل سبيلا للجِدّ قصدَ تحفيز العقلية النقدية وإذكائها؟

3- الذي لا شكّ فيه أنّ الجاحظ الذي وضع رسالة في «المعلمين» وأخرى في «المُغنّين» وثالثة في «القِيان» قد خصّ النساء برسالة تأكيدا على أهمية الموضوع وضرورة الإجابة عن سؤاله. هو وإن لم يتعرّض صراحة إلى قضية المكانة العقلية للمرأة فإنّ سكوته كان مرجِّحا لدلالات تجعله أفصح من الكلام. نجده في مواضع يلمّح إلى مكانة المرأة فيستبعد عنها العقل وفي مواضع أخرى لا يتردد في التبخيس من أهمية رأيها وفي تفضيل الرجل عليها. وإذا كانت المرأة، عند الجاحظ تَفْضُلُ الرجلَ في أمور فهي لا تعدو أن تكون أمورا متّصلة بالأنوثة والضعف، فهي التي : «تُخْطَب وتُراد وتُعْشَق وتُطْلَب» وهي التي « تُفْدَى وتُحْمى». نجده أيضا يورد بعض النوادر التي وإن كان لا يتبناها صراحة فهي تبقى معبّرة كقوله «ومن أقوال العامّة: «أحمقُ من معلّم كُتّاب...وكيف يُرْجى الرأيُ والعقل عند مَن يروح على أنثى ويغدو على طفل».

4- ما ينبغي أن نذكره من جهة أخرى أنّ الجاحظ كان من المعتزلة بل ومن رجالهم المتميّزين وأنّ هذه الفرقة، خلافا لما يمكن أن يُظَنّ، لم تكن مذهبا للخاصة دون العامّة. يقول صلاح الصفدي المؤرخ (تـ 764هـ/1362م) : «ومن وقف على طبقات المعتزلة للقاضي عبد الجبّار علم ما كانوا عليه من العدد والعدّة». كما نجد عند القاضي أبي علي التنوخي(تـ 384هـ /994م) صاحب نشوار المحاضرة: «أنّ نساء المعتزلة لم يكنّ يخشين الجنّ والأرواح وكذلك صبيانهم لأنهم لم يكونوا يسمعون أحاديث الجنّ من آبائهم بل كانوا يسمعون إنكار رؤيتهم». أما ياقوت الحموي (تـ 626هـ /1129م) صاحب معجم البلدان فيقول في حديثه عن مدينة «تاهرت» في المغرب قرب « تلمسان» أنّ مجمع «الواصلية»- أصحاب «واصل بن عطاء»، أحد مؤسّسي الاعتزال، كان هناك وأنّ عددهم بلغ ثلاثين ألفا في بيوت كبيوت الأعراب يحملونها».

ما نستفيده من هذه التفاصيل هو التوسّع العمودي لفرقة الاعتزال وأنّه يعسر أن نتصوّر إمكان تحقّق ذلك مع أنّ أحد رجالها كان يعتمد آراء إطلاقية وتحقيرية للمرأة.

لكن مع ذلك فما ذكرناه من بعض أقوال الجاحظ في خصوص مسألة المرأة يظل حاملا لدلالة ثقافية متّصلة بما تحمله ثقافة المسلمين، ككلّ ثقافة، من دلالات الالتباس والغموض بما تعبّر عنه من أقوال مرتبطة بخطاب قائم في أوساط تجعل عموم المرأة أقلّ قيمة إزاء عموم الرجال. مثل هذا الخطاب يعتمد تراتبية تكشف عن علاقة استتباع يتبناها قسم رجالي من المجتمع في تصوّره وممارسته إزاء النساء وفي تموقعه العام سياسيا واجتماعيا.

ما يتأكد بناءً على ذلك أنّ القول بوجود بنية عامّة تصوّرية تعمل على أساس دونية المرأة وأفضلية الرجل لا يعني أنّنا أمام بناء ثقافي مُوحَّد صَمٍّ وقاعدة مطّردة يشملان جميع الفئات الاجتماعية بمختلف أنماط حياتها المادية وتنوّع مستوياتها الحضارية. ذلك ما تثبته البحوث المتصلة بعلم الاجتماع الثقافي حين تقرّر أنّ الذات الثقافية تكون حتى في حالات «الاستقرار» الحضاري خاضعة لحقل تباين والتباس يبلغ أحيانا أخرى حدَّ التناقض والصدام الداخليين بين المفاهيم والرؤى التي تنتظم المجتمع.

5- بحثُ «سؤال المرأة» في هذا السياق لا يكون بالاعتبار البيولوجي وما ينجرُّ عنه من وظائف اجتماعية ولا هو تناول للمرأة بصفتها رمزا يوحِّد طاقات المجتمع في سياق إبداعي أو دفاعي. إنه بحثٌ في مسألة المرأة لكونها « مفهوما» (Concept) أي عُنصرًا معرفيا يتضمّن كشفا عن التعدّد والاختلاف الثاويين في المجتمعات والمُحرِّكَيْن لها.

في هذا المجال نجد نصا آخر من «زمن التأسيس» يكشف لنا تنوّع الزوايا التي يمكن أن تعرض من خلالها قضية المرأة. ذلك أنّ هناك فرقا بين النظر إلى المرأة باعتبارها رمزا موحِّدا وبين تناولها على أنّها مفهوم يتضمّن تراتبية وتفريقا يقوم على معرفةٍ أي على سلطة وسيادة. عالج هذا الموضوع أكثر من مفسر للقرآن الكريم عند شرح قوله تعالى : «يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِذَا جَاءَكَ الْمُؤْمِنَاتُ يُبَايِعْنَكَ عَلَى أَن لَّا يُشْرِكْنَ بِاللَّهِ شَيْئًا وَلَا يَسْرِقْنَ وَلَا يَزْنِينَ وَلَا يَقْتُلْنَ أَوْلَادَهُنَّ وَلَا يَأْتِينَ بِبُهْتَانٍ يَفْتَرِينَهُ بَيْنَ أَيْدِيهِنَّ وَأَرْجُلِهِنَّ وَلَا يَعْصِينَكَ فِي مَعْرُوفٍ فَبَايِعْهُنَّ وَاسْتَغْفِرْ لَهُنَّ اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ(الممتحنة/12)». ذكروا عندئذ بَيعة هند بنت عتبة زوج أبي سفيان فقالوا إنّ «النبي عليه الصلاة والسلام بايعهنّ وكان على الصفا، وهند بنت عتبة مُنتقّبة متنكّرة خوفاً من أن يعرفها رسول الله، فقال أُبايعكن على أن لا تُشركن بالله شيئاً، فقالت هند: انّك لتأخذ علينا أمراً ما أخذتَه على الرجال وذلك أنّه بايع الرجال يومئذ على الإسلام والجهاد فقط، فقال رسول الله: ولا تَسْرِقْنَ. فقالت هند: إنّ أبا سفيان مُمْسِكٌ(بخيلٌ) وانّي أصبتُ من ماله هنات فلا أدري أيحلّ لي أمْ لا؟ فقال أبو سفيان: ما أصبتِ من مالي فيما مضى فهو لك حلال .. فضحك رسول الله وعرفها فقال لها: وإنّكِ هندٌ بنت عتبة، فقالت: نعم فاعف عمّا سلف يا نبي الله عفا الله عنك. فقال: ولا تزنين. قالت هند: أَوَ تزني الحُرّةُ؟! فقال الرسول: ولا تَقتلنْ أولادكن، قالت هند: ربّيناهم صغاراً وقتلوهم كباراً وأنتم وهم أعلم. وقال النبيّ: ولا تأتين ببهتان قالت هند: والله إنّ البهتان قبيح وما تأمرنا إلاّ بالرشد ومكارم الأخلاق، ولمّا قال: ولا يَعْصينكَ في معروف قالت هند: ما جلسنا مجلسنا هذا وفي أنفسنا أن نعصيك في شيء».

6- ما يلاحظ في هذا النص أنّ الحوار فيه كان يجرى على مقتضى رُؤيتين: رؤية الداعي إلى بيعة النساء على أساس رساليّ يريد أن يوحّد ويؤسس أي أنّها رؤية تنظر إلى المرأة باعتبارها معنى جامعا ورمزا موحِّدا بينما كانت تعليقات هند بنت عتبة القرشية العبشميه صاحبة الشهرة العالية قبل الإسلام وبعده مُعبّرةً عن موقعها الاجتماعي والسيادي أي عن الفئة المالكة للقوّة والسلطة ولرؤية خاصّة للذات ضمن ذلك الموقع.

7- لكن، مع هذا وذاك، فإن هذه النصوص التراثية إذ تكشف عن أن «سؤال المرأة» قديمٌ ومُعادٌ، بل إنه ليس خاصّا بالثقافة والاجتماع الإسلاميين، وأنّ المهمّ فيه هو تعلُّقُه بتركيب الذات الثقافية وتنوّع ردودها حسب كلّ زمن وكلّ سياق. خطورة السؤال فيما يتجه إليه من إرساء لتعايشِ العناصر المتباينة داخلَ الهوية الثقافية أو تصادُمِها وفيما يفضي إليه من نتائج خاصة يزيد من تعقيدها السياق الاجتماعي والحضاري المواكب لها بما يجعل أنّ أهمّ ما في «سؤال المرأة» اليوم أنّه يأتي في سياق معولم.

ذلك أنّ ظاهرة العولمة التي تفرض نفسها على الجميع في المجالات الاقتصادية والمالية والسياسية لن تقف دون اختراق المجالين الاجتماعي والثقافي. هي ستواجه بالضرورة طبيعةَ البناء الثقافي المرَكَّب للمجتمعات بما يشتمل عليه ذلك البناء من تنوّع واختلافات تضعها أمام تحديّات أكبر ستُضاعف من حدّة تمزّقاتها وخطورة سيرورتها إن لم تُعالج المعالجة الأنجع والأشمل.

لهذا يتعذّر النظر إلى قضية المرأة اليوم على أنّها مسألة اجتماعية حقوقية مستقلة وأنّها تختزل بمفردها أزمة العالم العربي المعاصر برُمّته. السياق المعولم يجعل الأمر مختلفا كليًّا عن ذلك إذ يجعل من السؤال قضيةً إشكاليةً مُركَّبة لا تقبل التبسيط والعزل والاستنساخ. هو سياق يتطلب رؤية بديلة تتجاوز المنظومات الإيديولوجية الجاهزة والمعالجات الظرفية والإصلاحات المبسّطة. إنّه يقتضي في المستوى الثقافي الاجتماعي والسياسي رسم معالم فكر وسياسات تُمكّن من تقدّم حقيقي شامل لا يخصّ سؤال المرأة بأولوية مميّزة لها وحدها بل يحرص على أهمية تنزيلها ضمن مشروع وطني اشتمالي تصنعه المجتمعات العربية الأكثر تحررا وإنسانية..

ر.خ.

المـرأة مستقبـل الإنسـان

• بقلم منجي الزّيدي

كتب المصلح التونسيّ الرّائد الطّاهر الحدّاد عام 1929 «المرأة هي أُمُّ الإنسان». وأنشد بعده الشّاعر الفرنسيّ الكبير Louis Aragon : قولته الشهيرة : La femme est l'avenir de l'homme، و التي أميل إلى تعريبها بالمرأة مستقبل الإنسان. ذلك أن الذّات الإنسانيّة وحدة مُوَحَّدة متكاملة، فالله عزّ وجل خلق الإنسان من ذكر وأنثى ولم يُفرّق بينهما. الميز والحيف والاضطهاد نتاج اجتماعيّ من فعل البشر. و لا جدال في أن تحضر المجتمعات وسعيها الى تحقيق الرقيّ الإنساني مرتبط بمكانة المرأة فيها. وهذه المكانة تعلو بفضل الثقافة والوعي المستنير ، وتنحدر بسبب الانحطاط الفكريّ والتّزمت الدينيّ والعُقد النفسيّة-الجنسيّة. ←

قـد أدرك المصلحون في بلادنا منذ ما يزيد عن قرن من الزّمان أن إصلاح المجتمع مشروط بإصلاح أوضاع المرأة وفكّ أسرها الاجتماعيّ والاقتصاديّ، وتحرير طاقاتها، واحترام ذاتها، والإيمان بقدراتها، من منطلق القراءة المستنيرة للدين الإسلاميّ والاجتهاد في تأويل تعاليمه بما يتناسب وقيمة الإنسان وتبدّل الأحوال وتغيّر الأزمان وتطوّر المجتمعات.

كما أيقنوا أنّ مجتمعا نصفه مُقيّـدٌ هـو مجتمع مُقْعَدٌ كسيح. وتفطّنوا بنباهتهم وصدق وطنيتهم إلى ارتباط النهوض بالمرأة بالتعليم. ذلك أن ما آلت إليه مكانة المرأة من تخلّف وتَرَدٍّ كان نتيجة قرون من الجهل والتجهيل والانغلاق و التحجّر.

لقد انتبهت النّخبة المستنيرة منذ نهاية عشرينات القرن الماضي إلى لـزوم تعليـم المرأة تعليما عصـريًا متـوازنًا يساعد على تطوير أوضاعها ويُمكّنها من القيام بوظائفها الاجتماعيّة في الأسرة والمجتمع. وتَجَسَّدَ هذا التلازم في مشروع دولة الاستقلال التحديثيّ بقيادة الزعيم الخالد الحبيب بورقيبة. وها نحن اليوم نجني ثمار ذلك. فإذا كان عابر الطّريق في السّنوات الأولى بعد الاستقلال يندهش من «تضخّم سيل البنات المقبلات على المدارس مثقلات بالكتب والدفاتر» ويدرك «مدى تسابقهنّ على موارد التثقيف وازدحامهن على مناهل العرفان» (كما جاء في وصف العلامة حسن حسني عبد الوهاب في تقديم الطبعة الرّابعة من كتابه شهيرات التونسيات) فإنّنا اليوم وعندما ننظر في محيطنا الاجتماعيّ نجد في أكثر مـن أسـرة تونسيّة فتاة متميّـزة تحتلّ المراتب الأولى في التحصيـل الدراسي وتتألّق داخل الوطن وخارجه.

فتيات نابهات مجتهدات يعكفن على الدراسة ويثابرن في طلب المعرفة. نتائج مناظرة الباكالوريا للأعوام الثلاثة الماضية دليل على ذلك فقد حصد الصبايا أعلى المعدّلات: أحلام، سيرين، هيفاء، أميمة، آمنة، أريج، أمل، ياسمين، رؤى، إيناس، مريم، لينا، منال... أذكرهنّ دون ذكر ألقابهنّ العائلية فلهنّ لقب واحد: التونسية، إذ هُنّ بنات تونس وزرعها الطيّب.

ولا يَحسَـبنّ البعـض أنّ هؤلاء المتفوّقات منقطعات للدراسة وزاهدات في مجالات الحياة الشّبابية الأخرى بما فيها من أنشطة فنية ورياضية وترفيهية. لا بـل هُنّ يعشن حياة متوازنة معتدلة. ويزاولن واجباتهن بانضباط وتنظيم. فتيات متوازنات وجَدن في أسرهن الحُنوّ والرّعاية وحفز الهمّة والاحترام. وتَعَهّدَهُنّ مربّون أجلاّء بالمتابعة والتّوجيه والتّشجيع. وتعلّقت همّتهُن بطلب العُلى فسهرن اللّيالي. وقبل ذلك وبعـده فهُـنّ لا ينقصهنّ لا العقل و لا الدّين.

إنّ ظاهرة تَميُّز الفتاة في الدّراسة والعمل ليست حكرا على تـونس بل هـي ظاهرة منتشرة في مجتمعات كثيرة. فأغلب المُدرّسين يعرفون أنّ الطالبات أكثر انضبـاطا واجتهـادا والتـزاما وتفـوّقا في الدراسـة من زمـلائهنّ الطّلاب.

للظاهرة بلا شكّ أسباب وعوامل اجتماعيّة ونفسيّة واقتصاديّة. ولكن الأرجح أنّ هناك استعدادًا أنثويًّا للعمل والبذل والتضحية لا يتوّفر دائما عند الذّكـور. وهو استعـداد لا يقتصر فقط على التّعليم بل يمتّد إلى مجالات الحياة العمليّة. وتؤكّد الملاحظة السوسيولوجيّة والمعايشة اليوميّة، في ظلّ غياب الدراسات والإحصائيات، جديّة المرأة في العمل وحرصها على الإتقان والتزامها بالقوانين والضوابط. هنالك بلا شكّ استثناءات، ولكن كلّما أتيحت للمرأة فرصة الإشراف والتسيير إلاّ وأثبتت كفاءتها واستقامتها. فهي في الغالب الأعم تتعامل مع عملها وتدير مصالحه بعقلية الأمّ وربّة الأسرة.

وإذا كانت المرأة منبع الحياة، وقد خصّها الله بامتياز الحمل وشرف الوضع، ومنحها من القّوة ما تتحمّل به شدّتهما، فهل بها بعد هذا من الضّعف ما يُبرّر إقصاءها عن مواقع القيادة ومراتب الريادة؟

أن يتمادى المجتمع الذكوريّ في جهله وغطرسته ويعتبر المرأة ناقصة عقل ودين، ويُشهر في وجهها تهمة الضّعف الجسديّ والهشاشة النفسيّة فذلك إصرار على التّخلف. الشعوب التي تقودها نسـاء شعـوب لا تقلّ عنّا وعيًا أو ثقافةً أو تديّنًا، هي فقط تجاوزت عقدها ونرجسيتها وتخلّصت من تراث «شهريار» و«سي السّيد»، وأدركت أنّ المرأة فعلا مستقبل الإنسان.

م.ز.
أستاذ تعليم عال بجامعة تونس

■ نايلة المزغني رئيسة قسم علمي جامعي بكندا

يوميّـــات مـــواطن عيـــــاش

المـــادام عـــاملـة اعتـــصـــام!

• بقلم عادل الاحمر

كنت متّكئا على أريكة، بعد تبحيرة وتفرشيكة، أتلذّذ بنعم المكيّف، والحال صيف مصيّف، عندما فاجأني صديقي العيّاش بـــ «آس . أم. آس»، يعلمني فيه أنّه في حالة إفلاس، ولا بدّ أن أهاتفه بسرعة الكهرباء، في موضوع لا يحتمل الإبطاء. فقلت في نفسي وأنا أضغط على رقم العياش «ترى ما الذي يخبّئه لي هذا الرجل من مصايبو لي ما توفاش ؟».

ولما وصلني الصوت المرتعش لصديقي العزيز، فهمت أنّه حقيقة في «كريز»، فقلت : «ما الخطب وماذا جرى ؟» ، فقال : «مشكلة كبيرة مع المرا»، فأسرعت بالجواب : « ألهذا تزعجني يا سي الشباب؟ ماهي هاذيكة حياتكم الزوجية، من نهار لي صحتو ع الصداق في البلدية، نهار متعاركين ونهار متسامحين، واليوم حرب وغدا سلام، مرة حبّني ونحبّك ومرة تسميع كلام، وإن شئت الحقيقة الربانية، فإنّ عركككم ماعادش يجد علي، ومهبول لي يدخل بين راجل ومرتو، على خاطر ما يعرفش شنية آخرتو، هوما يرجعو متسامحين، وإنت تطلع خايب وتاكل الضرب ع اليدين».

عند هذا الحد قاطعني العيّاش : «اشنوه هالديسكور لي حليتهولي، وإنت ما سمعت شي من قولي. يلزم تعرف لي هالمرة موش كيف المرات لخرين، والحكاية لا هي عرك ولا تخرنين، إنّها آخر طلعات المادام : لقد أعلنت الاعتصام». فقلت مازحا : «إن شاء الله موش اعتصام الرحيل متاع هاك العام، وإلا توّه ترصيلك على برّة وساقيك القدّام» . فثارت ثائرة العيّاش لهذا الكلام : « توه أنا نقلك المرا عاملة اعتصام، وإنت تجبد لي في حكاية هاك العام ؟ ياولدي تعرف شنوّه اعتصام ؟ معناها لا نظافة، لا غسيل حوايج واماعن، ولا حديد ولا طعام».

قلت بين جدّ وهزل : «يا لصديقي المسكين ... إيه وماهي مطالب المعتصمين ؟». أجاب العيّاش دون تعليق على سؤالي الساخر : «إنها تريد معينة منزلية، وإجازة سنوية، تقيم خلالها في أحد النزل الساحلية . كما تطالب بتقسيم الأعمال المنزلية، بالتساوي بين كل أفراد المجموعة الأسرية، وإلا فإنّها لن تضرب فيها ضربة من الآن، وما علينا إلا أن نجد حلولا لمشاكلنا في الإبان ! وأين لنا من هذه الحلول يا صديق العمر، وقد تعودنا كل شي يجي ليدينا في لمح البصر، دون أن نتساءل عمّا وراء هذه الخدمات من جهد وتعب، وعناء ونصب؟ وممّا زاد الطين بلّة أنّ «الصوناد» تحالفت مع المادام، وقطعت علينا الماء لعدّة أيام، فإذا بنا في حيرة حتى العنكوش، بينما قائدة الاعتصام تنظر إلينا شامتة من حرف «التوش»... لذلك خاطبتك، طالبا نجدتك».

قلت للعيّاش : «إنّ مطالب مادام العياش مطالب مشروعة، وصرخة منها يجب أن تكون مسموعة. فما الذي يمنعك من الإنصات لصوت الاعتصام، وتلبية رغبات المادام، سيّما وأنّها معقولة رصينة، ولا تشكل عبئا كبيرا على الخزينة»... وعندما سمع العيّاش هذه الكلمات الأخيرة، خرج من سينتو وبدّل معاي السيرة. «نعم يا سيّد ؟ معقولة ورصينة؟ وماهيش عبء كبير ع الخزينة ؟ ياخي ما تعرفش لي أنا ديما في الروج، وفي جرّة البنكاجي متاعي عمري الكل ممروج، ناخذ قرض باش نخلص قرض، حتى ركبني عشرين مرض».

وبعد صمت خلته دام عدة قرون، تكلّم العيّاش من جديد : «تعرف يا صاحبي أنا كيف شكون ؟ أنا كيف بعض الحكومات، واحلة بين إملاءات صندوق النقد الدولي ومطالب النقابات ... وعلى كل حال توّه نشوف حلّ لروحي ولا مزية لحد : هدية للمادام وشوية وعود وفطور البرة نهار الأحد... وإذا ما مشاتشي الأمور وتواصل الاعتصام، ما يبقى لي كان نحط راسي للبنكاجي والسلام».

على هذه الكلمات التي تفوح حكمة وواقعية، أغلق العيّاش جوّاله دون تحيّة. وبينما كنت أفكّر في ما سيفعله العيّاش مع زوجته الثائرة، جاءني صوت زوجتي من الغرفة المجاورة : «أيه سي الشباب : قوم دبّر فطورك ومن غير كلام، أنا م اليوم في اعتصام»..

ع.ل

«...تعالَوْا إلى كلمة سَواء...»

أغلب النصوص المقدّسة، في الدّيانتين اليهوديّة والمسيحيّة، لا يعتبرونها «مُنزَّلةً» في نصوصها وألفاظها ؛ وأكثرها منسوب إلى أنبياء أو إلى رجال اشتهروا بالتقوى والصلاح. أمّا القرآن، فالمسلمون يؤمنون بأنه نُزّل على الرسول محمد - عليه صلاة الله وسلامه - بسُوره وآياته وكلماته : فلا يخطر ببال أيّ مسلم أنّ آيات منه، يتطرّق إليها الباطل، بصورة من الصور.←

• بقلم الشاذلي القليبي

أما ما يُروَّج له، في بعض البلاد الأوروبّية - رُبّما بإيعازات مُغرضة - من أنّ القرآن يبثّ الحقد، ويَحُثّ على أعمال العنف ضدّ أهل الكِتاب، فهذا القول ناتج عن سوء فهْم للنصّ القرآني، إمّا مِن قِبل فئات تدّعي الدفاع عن الإسلام، وإمّا مِن قِبل خصوم للإسلام، اطّلعوا على القرآن بواسطة ترجمات قد تكون غير محكمة ؛ ولعلّهُم يجهلون أوضاعا تتعلّق بالفترة الجاهليّة، وما كان فيها من مواجهات، بين دعاة الإسلام والفئات المناوئة لهم.

لكن التوصية الصادرة إلى المسلمين، وهُم مضطَهدون بمكّة، أن يتمسّكوا بالصبر، وأن لا يردّوا الفعل - أغلب الظنّ عندي أنّه يُقصد منه، خاصّة، وقاية للمجتمع المكّي من انتشار الفتنة. فلمّا انتقل مقرّ الدعوة إلى يثرب - التي سُمّيت منذئذ بـ«المدينة» - رأى المشركون النّاس «يدخلون في دِين الله أفواجا»، فتألّبوا على المسلمين ؛ وانضمّ إليهم مَن تحالف معهم، مِن اليهود - رغم أنّ المسلمين أقرب إلى اليهود من المشركين، من حيث العقيدة ؛ ولكن غلبت عليهم أوضاع الجاهليّة الجهلاء، فغلّبوا سياسة المصالح. فإذْاك صدر للمسلمين الإذن بالقتال، لكن خارج «أسوار» المدينة؛ واتّخذت المجابهة نمط الحرب بين معسكرين. وهذه الآيات التي تحرّض على القتال، إنّما هي حينئذ ظرفيّة، للتحريض على الدفاع، ولردّ العدوان، في ظروف مُعيّنة، وهي إذن لا تأمُر بواجبات ثابتة، غير مقيّدة بزمان ولا بمكان.

ومعروف أنّ عددا من أبرز الشخصيات اليهوديّة اعتنقوا الإسلام، وتبوّؤوا منازل عالية في المجتمع الإسلامي.

ومعروف أيضا أنّ في القرآن آيات كثيرة تشيد بموسى وهارون - حتّى قيل، تفكّها، إنّ القرآن ، في جُملته، «قال موسى». والقرآن يشيد بالأنبياء الذين ينتسب إليهم موسى، إذ يقول : «واذكر عبادَنا إبراهيم وإسحاق ويعقوبَ... إنّهم عندنا لَمِن المصطفَين الأخيار...».

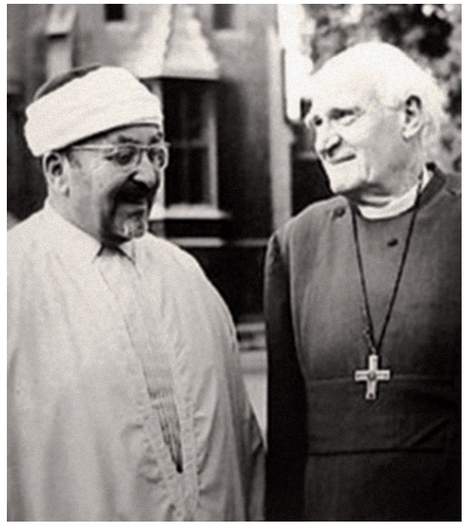

وما جاء في القرآن عن المسيح وأمّه، يكتسي روعة عالية؛ وما جاء سلبا في حقّ فئات من اليهود، فللتذكير بذنوب كانوا ارتكبوها في حقّ دينهم.

وموقف القرآن مِن اليهود - ويُسمّيهم «بني إسرائيل» - يَتلخّص في قوله : «ولقد آتينا بني إسرائيل الكِتابَ والحُكمَ والنُبوّةَ ورزقناهم مِن الطيّبات وفضّلناهم على العالَمِين».

ثمّ إنّ القرآن، في حديثه عن الديانتين السابقتين، لا يقتبس ممّا جاء قبله من كُتب. فالمسلمون يُؤمنون بأنّ القرآن صادر عن الخالق، عزّ وجلّ، الذي هو مصدر الرسالات السماويّة، كافّة، ومُنزِّل سائر الكُتب، جميعا، ومنها القرآن : «وهذا كِتابٌ أنزلناه إليك مُباركٌ مصدِّقُ الذي بين يديه» ؛ ويقول، عزّ وجلّ، مُخاطِبا رسوله : «والذي أوحَينا إليك من الكِتاب، هو الحقّ، مُصدِّقا لِما بين يدَيه...». أي مُصدِّقًا للتوراة والإنجيل.

فالدّعوة التي أطلقها البعض إلى إلغاء آيات معيّنة من القرآن، يَعتبرون أنّ فيها إساءة إلى اليهود، هذه الدعوة تنُمّ، حينئذ، عن اعتقاد بأنّ القرآن مصدره بشري : وإلاّ فإنّ الإيمان ينتقض جميعه، إذا المؤمنون ادّعوا، فيما نُزّل بالوحي، لفظًا ومعنى، التمييز بين ما هو صالح وما هو مؤذٍ، في نظرهم - مُخالِفين بذلك إرادة الخالق، عزّ وجـــلّ. أمّا إذا دعوتهـــم تَعنـي أيضا تطهير الشروح والتفاسير، من عائلات بثّ الكراهيّة، فهذا دليل على أنّهم غير مُطّلعين على ما صدَر، منذ قرون متتالية، من شروح عالية الشأن، بعيدة المقاصد،نقيّة الأغراض.

أمّا إذا تعلّق الأمـــر بما يذهـــب إليه بعـــض المسلمين، في تعصّبهم الجائر، فالمشكل عندئذ ليس في النصّ القرآني، وإنّما هو ناتج عن سوء فهْم له، أو عن خلط بين الأوامر الظرفيّـــة، وبيـــن الواجبات الـــدائمة. والقضيّة هـــي إذن اجتماعيّة، وليســـت دِينيّة. ومجتمعاتنا تعاني الويلات بسبب هذه الانحـــرافـــات الضالّة.

أمّا إذا تعلّق الأمر بما ارتكبه اليهود، زمن رسولهم موسى، وفي عهد بعض أنبيائهم، من بعده فيعتبرون مجرّدَ التذكير به ثلبا في حقّهم، ويَدّعُون أنّه دعوة للكراهيّة - وهي، في عصرنا، التُهْمة «القاتلة»، في نظرهم، أو هُم يرجونها كذلك، لأيّ شعْب يكافح من أجل نيْل حقـــوقه - فإنّ ذلك إقحـــام لبعـــض الأغراض السياسيّة - ومنها هموم فلسطين وما إليها - في سياق الاعتبارات الدّينيّة.

هذه هي الأبعاد التاريخيّة لتشنّج العلاقة بين اليهود والمسلمين، لكنّها ازدادت تعقّدًا بقيام دولة لليهود، على أرض ملكيّتها في نزاع بين الطرفين.

والحقيقة، أنّ اليهود كانوا دوما على غير محبّة ولا وئام مع المسيحيّين، لأنّهم انتزعوا منهم شرف الرسالة ؛ وهُم، جميعا، أولئك وهؤلاء، في خصام مع الإسلام، لأنّه جاء مُصَحِّحـا لِبعض ما هُم عليه.

ولو أمعنوا النظر، لأدركوا أنّ الإسلام جاء مُشيدا بما نُزّل على موسى والمسيح، مُعتبِرا أنّ مجموع اليهود والنصارى – في أصل ما دُعُوا إليه – هُم جميعا، مع أتباع الدعوة المحمّديّة، يحقّ أن يُقال عنهم إنّهم «المسلمون» : «مِلّة أبيكم إبراهيم هو سمّاكم المسلمين مِن قبْلُ». ذلك أنّ «الدِّينَ عند الله الإسلام». «وما كان إبراهيم يهوديّا ولا نصرانيّا ولكن كان حنيفًا مسلما». «وإلهُنا وإلهُكم واحد ونحن له مسلمون».

وخُصوم الإسلام، لو أخلصوا النيّة، لتذكّروا أنّه يدعو أتباعه، إلحاحا وتكرارا، إلى تدبّر القرآن – وحُسن فهْم آياته، لفتْح الآفاق إلى ما يَكُون به الإسلام، حقّا، صالحا لِكلّ زمان ولِكلّ مكان، وشاملا لكلّ الفئات، مصداق قوله تعالى : «أفلا يَتدبَّرُون القرآنَ أمْ على قلوب أقفالها».

ولو فعَلوا لَتأكّدوا أنّ الإسلام دِين اجتهاد، يدعو إلى إعمال العقل في المقاصد، واعتبار المصالح العاجلة والآجلة، حتّى يبقى، دوما، سبيلا مفتوحا إلى دائم الارتقاء بالمجتمع، وإصلاح ذات البيْن فيه، وإلى دائم التسامي بالإنسان إلى ما ينبغي من درجات التطوّر والفلاح.

فالاجتهاد إذن، في الإسلام، ليس بمعنى إعادة صياغة الآيات – وهو مسّ بما جاء عن طريق الوحي – بل الاجتهاد إنّما هـو الغـوص في الأعمـاق من معاني الآيات، وإدراك لأبعاد من مقـاصـد الإسلام.

فإذا سَلّمنا بأنّ العلاقة بين أتباع الإسلام وبين أتباع الدّيانتين السابقتين، إنّما هي علاقة التقاء في الأصل، وهو الإسلام لله عزّ وجلّ، وأنّ هذه العلاقة اضطربت لدخول جيل من اليهود المُقيمين في بلاد العرب في حلف مع المشركين المُعادين للإسلام، فلا مَعْنى لاتّهام المسلمين باللاّساميّة – لا سيما أنّ العرب واليهود ينتمون، جميعا، إلى نفس الأصول العِرقيّة.

وقد كان ظهر التناغم بين الدّيانات السماويّة الثلاث، جليّا، في حضارة الأندلس، إذ شارك في صُنعها اليهود والنصارى، في مجتمع إسلامي بلغ قمّة من الحضارة، لا ميز فيه بينهم وبين المسلمين. بل إنّ الثقافة اليهوديّة شهدت، في الأندلس، تطوّرا عاليا لم يسبق لها مثله ؛ وكان لأصحابها، في المجتمع الأندلسي، درجات مُتسامية من المسؤوليات.

وهـذا التمـازج الحـضاري الذي صَنع حضارة الأندلس، لم يَشهد مثلَه التاريخ من قبلُ، إذ كان ما قبْله من حضارات إنّما يَقوم على الميز والإقصاء، واعتبار المُغايرين، في الثقـافة واللغة والدّيـن، من «البرابرة» : فيعيشـون على هامش المجتمـع المتحضّر.

أمّا المسلمون، فيأمُرهم القرآن بأن «لا يُجادلون أهل الكِتاب إلاّ بالتي هي أحسن».

وقصارى القول فإنّ المجتمع الإسلامي فتَح السبيل إلى التعاون الحضاري بين الشعوب – مصداق قوله تعالى : «وما أرسلناك إلاّ رحمةً للعالَمين»– وأنّه هو الذي نهَج إلى النموذج الحديث، القائم على التآلف الحضاري بين «أهل الكِتاب»، جميعا، وغيرهم، ممّن كان لهُم باع في إثراء الحضارة الإنسانيّة.

وهو ما قامت عليه حضارة الأندلس ؛ ومنها نهلت أوروبا، واستعانت بما أخذته، لِتقوى على إطلاق نهضتها الحضاريّة.

ش.ق.

تونس وصندوق النقد الدولي

• بقلم محمد الهادي زعيّم

الهدف من هذا المقال هو إعطاء فكرة واضحة ومبسّطة وموضوعية عن صندوق النقد الدولي، هذه المؤسّسة الدولية التي التصقت بها في مخيّلة أغلبية الناس صورة المارد الذي يرهب الدول النامية بإلزامها اتّباع سياسات تنتهي في آخر المطاف بتجويع الطبقات المتواضعة وتعميق التبعية.

الصندوق

صندوق النقد الدولي وكالة متخصّصة من منظومة تابعة للأمم المتحدة، أنشئ بموجب معاهدة دولية في عام 1944 تعرف بمعاهدة «بريتون وودز» نسبة إلى المكان الذي تمّت فيه، وذلك للعمل على تعزيز سلامة الاقتصاد العالمي. ويقع مقرّ الصندوق في واشنطن العاصمة، وله مكاتب في أنحاء العالم ممّا يعكس اتّساع نطاق تواصله على المستوى العالمي. ويديره أعضاؤه من جميع بلدان العالم (189 بلدًا). وجميع البلدان الأعضاء في الصندوق ممثّلة في مجلسه التنفيذي، الذي يناقش آثار السياسات الاقتصادية لكل بلد على المستوى الوطني والإقليمي والعالمي ويوافق على القروض التي يقدّمها الصندوق لمساعدة البلدان الأعضاء على معالجة المشاكل المؤقّتة التي تواجهها في ميزان المدفوعات، وكذلك لمعاضدة جهود بناء القدرات. و تتأتّى الموارد المالية للصندوق أساسا من مساهمة البلدان الأعضاء. ويشارك كل بلد في موارد الصندوق بحصّة كلّ بحصّة محدّدة في الأساس على مركزه النسبي في الاقتصاد العالمي، بحيث بقدر ما يكون البلد غنيًا تكون حصّته مرتفعة. وحصّة كلّ بلد عضو هي التي تتحدّد على أساسها ثلاثة أشياء هامة:

الحد الأقصى لالتزاماته المالية تجاه الصندوق، وحجم التمويل الذي يمكنه الحصول عليه من الصندوق، وأخيرا قوته التصويتية. وهذا الجانب الأخير يعطي للدول الغنيّة مجالا واسعا للتحكّم في قرارات الصندوق وسياسته. وتتصدّر الولايات المتحدة قائمة البلدان المساهمة بحوالي 58 مليار دولار (2016)،أي حوالي 16.5 بالمائة من الموارد وما يعادلها من الأصوات بينما تبلغ حصّة الصين 6.1 وألمانيا 5.1 . والدول المتقدمة 55.2 منها 44.8 بالمائة لمجموعة الدول السبع الكبرى. ويمتلك الصندوق وحدة حساب (وهي عبارة عن عملة) خاصّة به تسمّى «حقوق السحب الخاصّة». هي نوع من أنواع الأصول التي يقوم بإصدارها صندوق النقد الدولي وهى عبارة عن نقد احتياطي دولي يستخدم لدعم أصول السيولة الدولية كالذهب والدولارات والعملة الأجنبية، وقد قام الصندوق نتيجة للأزمات التى تعرّض لها أعضاؤه بزيادة حصص أعضائه وجعلهم يحدّدون كميّة السحب الخاصّة المطلوبة للدول الأعضاء وفقاً لحصصهم، وقام بتحديد شروط الاستفادة منها في حالة وجود عجز في ميزان المدفوعات أو حدوث تطوّرات في احتياطيات البلد النقدية.

مهام الصندوق

حسب ما جاء في نصّ الاتفاقية المؤسّسة له، يتكفّل الصندوق بثلاثة أدوار أساسية: دور مراقبة، ودور تقني تكويني، وأخيرا دور تمويلي.

فيما يخصّ المراقبة، صندوق النقد الدولي هوالمؤسّسة المركزية في النظام النقدي الدولي أي نظام المدفوعات وأسعار صرف العملات الذي يعتمد في المعاملات التجارية بين البلدان المختلفة .ويستهدف الصندوق منع وقوع الأزمات في النظام عن طريق تشجيع البلدان المختلفة على اعتماد سياسات اقتصادية سليمة.

ويهدف حسبما جاء في النصّ الاتفاقية المؤسّسة له الى تعزيز التعاون النقدي العالمي و ضمانا للاستقرار المالي وتيسير حركة التجارة الدولية، لذلك يمكن دون مجازفة أن نعتبر انّ صندوق النقد الدولي يلعب دور البوليس الـــدولي على المستوى المالي والنقدي.

ويتمثّل دوره التقني والتكويني في بناء قدرات البلدان عن طريق تقديم المساعدة الفنية والتدريب بناء على طلبها، لمساعـــدتها في بناء وتعزيز الخبرات والمؤسّسات اللازمة لتنفيذ السياسات الاقتصـــادية السليمة. وخلافا لما هو معلن فإنّ هذا الدور ليـــس تقنيا بحـــتا. فهو يرمي إلى ترويج المـــواقف والنظـــريات الاقتصـــادية المهيمنة.

أمّا الدور التمويلي ومنه تأتي تسميته كصندوق فيتمثّل في إتاحة التمويل بصفة مؤقّتة للبلدان الأعضاء لمعالجة المشاكل المتعلّقة بميزان المدفوعات، وذلك مثلا في ظروف معيّنة، عندما لا تجد لديها ما يكفي من النقد الأجنبي بسبب تجاوز مدفوعاتها الخارجية إيراداتها من النقد الأجنبي. وميزان المدفوعات هو الموازنة بين الموارد المتأتية من الخارج (التصدير، تحويلات العمال بالخارج،موارد السياحة...) والمدفوعات التي تتمّ نحو الخارج (التوريد، خلاص الديون الخارجية...) ويرفق الإقراض بجملة من الشروط في خصوص سياساته التصحيـــح و الاصلاح الرامية الي حلّ مشكلاتها الأساسية. وهذه الشروط تكوّن ما هو معروف ببرامج الإصلاح الهيكلي.

ويتعاون الصندوق في قيامه بهذه المهام مع القطاع الخاصّ في عمليات منع الأزمات وحلّها، ومع المنظمات والمؤسسات الدولية كالبنك الدولي ومنظمة التجارة العالمية وبنك التسويات الدولي والمنظمات الإقليمية الأخرى .

نحن والصندوق

التصقت بهذه المؤسّسة الدولية «في مخيّلة أغلبية الناس» صورة المارد الذي يرهب الدول النامية بإلزامها إتّباع سياسات تنتهي في آخر المطاف بتجويع الطبقات المتواضعة و تعميق التبعيّة. ولسائل أن يتساءل عن مدى وجاهة هذه الصورة.ولكي نمكنكم من الإجابة عن ذلك سنسوق جملة من الملاحظات :

1 - يتمّ اللجوء إلى الصندوق في الحالات القصوى أي عندما تعجز البلدان عن مجابهة انخرام ميزانها للمدفوعات وتصبح غير قادرة على دفع مستلزماتها من النقد الخارجي (العملة الصعبة). على المستوى النظري يبقى اللجوء للصندوق أمرا اختياريا. أي أنّ الصندوق لا يجبر أيّ بلد على الاقتراض منه. غير أنّ ذلك يبقى كما قلنا نظريا ولعدّة أسباب. يمكن مقارنة اللجوء إلى الصندوق كاللجوء إلى القسم الاستعجالي في المستشفى بالنسبة إلى الإنسان المريض أي عندما تبلغ المعاناة مستويات لا تطاق، وبعد أن تستوفى كلّ الإمكانيات المتاحة «بالمنزل».

ولقائل أن يقول : لماذا لا نبحث عن موارد محلية بديلة، عبر رفع مستويات الجباية أو «افتكاك» أملاك الفاسدين، وإيجاد الحلول الملائمة للاقتصاد الموازي... ؟ والمهتمّون بالشؤون الاقتصادية يدركون أنّ هذه الأمور حتميّة لكنّها ليست بالهيّنة، وهي تنطوي على تأثيرات جانبية تستدعي الكثير من الحنكة. وفي كل الحالات، فإن توفير موارد بالعملة المحليّة - ولو بمستويات كافية - لا يمنع من اللجوء إلى الاقتراض الخارجي عندما تكون الحاجة للعملة الصعبة. أي أنّ الموارد الداخلية لا تعوّض دائما الموارد بالعملة الصّعبة. ولآخر أن يقول : لماذا لا نبحث إذن عن موارد بديلة بالعملة الصعبة عبر اللجوء إلى الاقتراض من السوق العالمية ؟ زيادة على أنّ كلفة الاقتراض من تلك السوق هي في الواقع أرفع من الاقتراض من المؤسّسات الدولية، فإنّ المؤسّسات المالية في السوق لن تمكّن أي بلد من قروض بكلفة معقولة إلاّ إذا كان ذلك البلد يحظى بثقة المؤسسات المالية الدولية وعلى رأسها صندوق النقد الدولي. لذلك فإنّ المرور عبر الصندوق والدخول تحت مظلّته يبقى قدر أي بلد في حالة احتياج.

2 - عادة ما يرفق الاقتراض من صندوق النقد الدولي بجملة من الشروط في خصوص سياسات التصحيح والإصلاح الرامية الى حلّ مشاكلها الأساسية. هذه الشروط تكوّن ما هو معروف ببرامج الإصلاح الهيكلي. ويمكن مقارنة هذه البرامج بتوصيات الطبيب بعد أن يعطيك الدواء. وتكون هذه التوصيات في أغلب الأحيان مؤلمة لأنّها تتمثل في أغلب الأحيان في الحرمان من عدّة أشياء

مستحبّة (الكفّ عن بعض الأكلات الشهية، الكفّ عن التدخين، ترك السيارة والسير على القدمين...).

وتتمثّل المكونات العادية لبرامج الإصلاح الهيكلي في الإجراءات التالية :
- الضغط على النفقات العمومية من خلال تخفيف الإنفاق العمومي الاستهلاكي والاستثماري،وتقليص دعم المواد الاستهلاكية وتقليص المساعدات الموجّهة إلى المؤسّسات العمومية وتجميد الأجور والحدّ من التوظيف في القطاع العام.

- الزيادة في الموارد العمومية من خلال الترفيع في سلع القطاع العامّ وخدماته وتوسيع قاعدة الضرائب ومكافحة التهرّب الضريبي، وخوصصة المؤسّسات العمومية.

- اعتماد سياسة نقدية غير توسّعية أساسا من خلال الترفيع في نسبة الفائدة.

- تخفيض سعر العملة وتحرير المعاملات الخارجية من كلّ العوائق الإدارية والجبائية.

والملاحظ أنّ برامج الإصلاح تشكّل في أغلب الأحيان إجراءات قصيرة المدى ولا يمكن اعتبارها برنامجا للتنمية، بل جملة من الإجراءات التي ترمي أساسا إلى إعادة التوازن الى ميزان المدفوعات وتقليص العجز على مستوى الميزانية العامة للدولة. وعلى هذا المستوى يعاب على صندوق النقد الدولي أنّ وصفته الاعتيادية لم تتغيّر منذ عقود مع تعديلات صغيرة هنا وهناك تشمل فقط مستوى فقط مستوى الجرعة ووتيرة العلاج ، اعتبارا للحالة الخاصّة لكلّ بلد. ويمكن تلخيصها في صورة بسيطة : «لقد أفلستم. سأقرضكم لكي تتمكنوا من مجابهة المستعجل من حاجياتكم.عليكم بالمقابل أن تتخذوا الإجراءات اللازمة لتقليص مصاريفكم بتغيير نمط عيشكم. وإن ثارت عليكم العيال فذلك شأنكم .» والملاحظ أنّ هذه الوصفة تشكل في الواقع جوهر وأساس ما تسمّيه الحكومة «الاصلاحات الكبرى». ولا غرابة أن يتم تمويل الحملة الدعائية للترويج لهذه الإصلاحات من طرف أطراف أجنبية مشبوهة.

3. من الغلط أن نعتبر صندوق النقد الدولي كائنا معاديا يريد بنا شرّا. كما أنّه من السذاجة أن نعتبره مؤسّسة خيرية غايتها السعي لرفاهنا. فهي مؤسّسة دولية بعثتها وتتحكم فيها الدول المهيمنة على المنظومة الاقتصادية العالمية، غايتها حماية المنظومة ككّل وتطويع الاقتصاديات العالمية بما يسمح من ضمان النمّو المتواصل في إطار يحافظ على التوازنات القائمة وإعادة إنتاج العلاقات الدولية السائدة. وإن توافق رفاهنا مع ذلك فمرحبا به، وإن تعارض معه فعلينا أن نتأقلم، وأن ندفع الثمن. ومن مهامّ الصندوق تطوير منظومة فكرية تروّج لتلكم التوجهات وتشّكل القاعدة الإيديولوجية للسياسات المعتمدة. ومن ركائز ذلك الفكر، الإيمان بجدوى التوجّه الليبرالي على مستوى العلاقات الاقتصادية والمبادلات التجارية. غير أنّ التحوّلات العميقة التي عرفتها العلاقات الدولية في السنوات الأخيرة بدأت تدخل رجّة كبيرة في وجاهة هذه القاعدة الفكرية، كما يعترف بذلك الصندوق نفسه في تقريره السنوي الأخير: «التجارة وثيقة الارتباط بالنموّ. وأسهم ارتفاع مستويات المعيشة الذي صاحب نموّ التجارة، في مختلف أنحاء العالم، في دعم وجهة النظر التي تذهب إلى أنّ التجارة هي أحد المحرّكات الرئيسية للنموّ... لكن الشكوك حول منافع التجارة تنامت... ويتزايد قلق البعض في كثير من الاقتصاديات المتقدمة بشأن تأثير التجارة. وانعكس هذا التحوّل في مسوح الرأي العام و في بعض الانتخابات. «(تقرير 2017، ص 8)

4. يجب على التونسيين أن يفهموا أنّ البلد أصبح أكثر فقراً ومعه التونسيون ككّل وأنّ القدرة الشرائية لجميع التونسيين تقريباً تتدهور باستمرار بشكل دراماتيكي مع ما يواكبها من تقلّص «الطبقة المتوسطة» يوماً بعد يوم وازدياد الفوارق الاجتماعية عمقا وحدّة. كما عليهم إن يدركوا أنّه لن يكون بالإمكان الحفاظ على مستوى المعيشة الذي عشنا من قبل دون المرور بفترة تعديل ، أي مجموعة إصلاحات تهدف إلى تطهير المالية العمومية، واستعادة التوازنات الاقتصادية الرئيسية وترشيد تدّخلات الحكومة وإرجاع البلاد إلى العمل . وبما أنّه ليس هنالك إصلاح بدون كلفة اجتماعية، فإنّه لن يكون دون توفّر شرط أساسي يمكن أن نجزم أنّه غائب تماما في ظلّ هذه الحكومة، ألا وهو توفّر انخراط حقيقي واسع من المواطنين والمجتمع المدني في محتو ذلك الإصلاح ومنهاجه . والشرط الأوّل لذلك الانخراط هو أن لا يتمّ تحميل تبعات الأزمة وكلفة تجاوزها لـ«المغلوبين على أمرهم» مثلما هو الحال الآن، لأنّ أولئك الذين يحتلّون موقعا من مواقع «القوة»، فقد بقي لهم إمكانية الدفاع عن مواقعهم، وحتّى اكتساب مواقع جديدة، في ظلّ الفوضى السائدة. والكل يعرف ان فترات الأزمات الكبرى هي الأكثر مواتية للتراكم غير الطبيعي للثروةوظهور طبقة من «الأغنياء الجدد». عندما ينزف الجسم ، فإنّ المستعجل هو إيقاف النزيف. ،أمّا تشخيص المرض العميق الجذورالذي يقف وراء النزيف والذي يجعله مزمنًا، واستنباط الإجراءات«الهيكلية» للقضاء عليه يمكن أن ينتظر بالنسبة إلى السّلطة الحاكمة.

إنّ عبقرية الحاكم هي التأكّد من أنّ معالجة النزيف لا تجعلك تنسى الداء العميق، وأنّها لن تساهم في جعله أعمق. فإنّ دوام

السلطة السياسية يعتمد لسوء الحظ على وقف النزيف أكثر من اعتماده على إنشاء علاج طويل الأمد. والمؤلم حقًا هو أنّ هذه الحكومة لا تمتلك أي رؤية لمستقبل البلاد، أي أنّه ليس لديها استراتيجية للتنمية و لاخطة حقيقية لإصلاح القطاعات حتّى تستطيع الخروج من أزمتها. ودون رؤية لا يمكن ضمان الانخراط الشعبي العريض، لأنّ الناس لا يقبلون التضحية إن لم يدركوا أنّ ذلك سيؤدي إلى وضع أفضل بالنسبة إليهم ، و لو بعد سنوات. وهذا يشكّل الشرط الثاني. بحيث يتبيّن أنّ المشكلة أساسا، مشكلة سياسية. وهذا مربط الفرس.

يجب التفريق بين ضرورة توفّر انخراط شعبي عريض في الخيارات الاقتصادية والاجتماعية الأساسية، وما يسمّى بالحزام السياسي للحكومة. فما يسمّى بالحزام السياسي يتمثّل في توفّر أغلبية بالبرلمان. والمشكل يكمن في نظرنا في أنّ هذه الأغلبية لم تعد تمثّل من انتخبها، مع إقرارنا بشرعيتها واحترامنا للمؤسّسة ولأعضائها. وهذا ليس نداء لحلّ البرلمان ولإجراء انتخابات سابقة لأوانها في ظلّ النظام الانتخابي الحالي أو بعد تعديله كما يدعو البعض إلى ذلك. ما الفائدة من الانتخابات وكلّ القوى السياسية لا تتوفّر على أيّ رؤية للمستقبل، ما عدى من اختار الشعبويّة الفجّة وسيلة سهلة ومجدية ؟ ربّما يكون هذا هو التحدّي الرئيسي الذي يواجه تونس اليوم، ونحن نفهم أولئك الذين يناضلون ، في بعض الأحيان غريزيًا،لكي تتغيّر الأشياء. يجب أن يساهم هؤلاءاليوم في وقف النزيف وفي نفس الوقت يقترحون ويعملون من أجل مشروع تقدم. ما عدى ذلك، فإنني أعدكم بأنّها ستترك المجال فسيحا في الانتخابات المقبلة لمزيج من الشعوبيين من جميع الأنواع . هؤلاء ليس لديهم برنامج ، باستثناء إدانة التجاوزات الحقيقية للآخرين ومكافحة مفترضة للفساد و السعي إلى «تنظيف» خادع للطبقة السياسية.وسيلقى هذا الخطاب آذانا صاغية لدى الأغلبية الساحقة من التونسيين، تزيده جاذبية و«لذّة» الجرأة اللفظية المتطرّفة، التي غالباً ما تقترب من الجلد والإعدام بلا محاكمة . وسيكون ذلك مدخلا لفترة جديدة من الضياع والتشرّد، ستكون هذه المرّة، قاتلة.

كفّوا عن تحميل صندوق النقد الدولي مسؤولية فساد بعض حكّامنا وعقمنا وعجزنا كلّنا. فالصندوق يلعب دورا بيّنّاه أعلاه، ولسنا في وضع ولا في حجم يسمحان لنا بأن نتحدّاه وحتى نتجاهله. أمّا أن نصبح كما هو حال من يتفاوض معه باسمنا اليوم- ذيلا له، ونجعل من الانسياق الأعمى لكلّ أحكامه مكوّنا من مكوّنات الدعم الذي يبحثون عنه في حربهم على الكراسي ضدّ خصومهم ، فذلك أمر آخر. أعطوني رؤية تحرّك سواكن هذا الشعب العظيم ومن مات فيه، واتركوني أتعامل حتّى مع الشيطان، لأجلها.

5. أريد أخيرا أن أشير إلى شيء هامّ. وهو أنّ هناك تنسيقا كبيرا رفيع المستوى بين صندوق النقد الدولي وكبار المموّلين وعلى رأسهم البنك الدولي ومنظومة الاتحاد الأوربي.زارنا يوم 12 جويلية الماضي وفد "مالي عالمي"، ضمّ ممثّلين عن الاتحاد الأوروبي وصندوق النقد الدولي والبنك العالمي والبنك الدولي والبنك الألماني للتنمية والبنك الإفريقي للتنمية والبنك الأوروبي للاستثمار والوكالة الفرنسية للتنمية والشركة المالية العالمية. وعقدت سلسلة من اللقاءات مع كلّ من رئيس الجمهورية ورئيس مجلس نواب الشعب، وكذلك رئيس الحكومة وعدد من أعضائها ومحافظ البنك المركزي. ويبدو لي أنّه إثر تلك الزيارة عدّل صندوق النقد الدولي موقفه نحو أكثر ليونة وأعطى الضوء الأخضر للحكومة للزيادة في الأجور في إطار المفاوضات مع اتحاد الشغل.

والمعلوم هو أنّ المؤسّسات الدولية -رغم تصّلبها الظاهري- تحسن التعامل مع الواقع وتقوم بـ«تنازلات» عند الاقتضاء وتجيد «فن التراجع الوقتي إلى الوراء». غير أنّ هذا التراجع جاء في رأينا في إطار عملية تنسيقية بين الصندوق من جهة ومنظومة الاتحاد الأوروبي، من جهة أخرى. ومهمّ أن نعرف أنّ البرنامج الذي يربط تونس بصندوق النقد الدولي لا يكتسي بالنسبة إليه أولوية كبرى باعتبار وزن تونس على مستوى المعاملات المالية والاقتصادية الدولية. وبالمقابل، فإنّ انخراط تونس في «اتفاقية التبادل الحرّ الشامل والمعمّق» يكتسي بالنسبة إلى الاتحاد الأوروبي أهميّة قصوى لسبب واضح هو أنّ كل بلدان جنوب المتوسّط غير متحمّسة للانخراط فيها، بما يجعل تونس المنفذ الهام الذي يمكن الدخول منه. وقد التزم يوسف الشاهد، كرئيس للحكومة، وبصفة شخصيّة، وبوضوح خلال المحادثات رفيعة المستوى التي تمّت ببروكسال يوم 24 أفريل الماضي، بأنّه سيتّم التوقيع على هذا الاتفاقية خلال 2019 لذلك فإنّ الاتحاد الأوروبي ينزل بكلّ ثقله و بدعم من كلّ الأطراف المانحة لإنقاذ حكومة الشاهد، ويتراجع الصندوق إلى الصفّ الثّاني لفسح المجال لمنظومة الاتحاد الأوروبي لتدفع ببيادقها للتقدّم نحو إنجاز هذه الاتفاقية.

ومن هنا نفهم مغزى نزول الاتحاد الأوروبي بكل ثقله وبدعم من كلّ الأطراف المانحة لإنقاذ حكومة الشاهد ولو كلّف ذلك غضّ النظر على تباطئها في إنجاز الإصلاحات المضمّنة في الاتفاق مع صندوق النقد، وحتّى منحها متنفّسا هامًا عبر ضخّ موارد إضافية عن طريق المؤسسات المالية الدولية والإقليمية التي تمّ تجنيدها للغرض.

م.هـ .ز
أستاذ الاقتصاد
بالجامعة التونسية

إقرار قانون «إسرائيل الدولة القومية للشعب اليهودي» التداعيات المُنتظَرَة والرّدود المُفترَضة

ليلةَ التاسع عشر من شهر جويلية 2018، وبعد أسابيع معدودة من الاحتفال «المشهود» بذكرى قيام دولة إسرائيل السبعين الذي اقترن،هذه السنة، بنقل سفارة الولايات المتحدة الأمريكية إلى القدس، أقرّ الكنيست الإسرائيلي بـ62 صوتا مؤيدا، و55 صوتا معارضا، وصوتين ممتنعين القانون الأساس الذي يحمل اسم «إسرائيل الدولة القومية للشعب اليهودي»...←

• بقلم محمّد ابراهيم الحصايري

بإقرار هذا القانون الذي ظلّ موضوع أخذ وردّ طيلة سبع سنوات، والذي كانت جلسات مناقشته صاخبةً، لا سيّما وأنّ بعض النواب العرب الفلسطينيين قاموا بتمزيق مشروعه،ووصفوه بأنّه قانون فصل عنصري،تُدَشِّنُ إسرائيلُ السنةَ الأولى بعد المائة من عمر وعد بلفور الصادر في 02 نوفمبر 1917، وهو ما يدل على أنّها ماضية قدما في استكمال تجسيم المشروع الخبيث الذي بَشَّرَ به هذا الوعد «الإبليسي».

وبقدر ما كان إقرارُ هذا القانون محلّ ترحاب من الجانب الإسرائيلي، حيث اعتبر بنيامين نتنياهو رئيس الوزراء الإسرائيلي التصويت عليه «لحظة فارقة في تاريخ دولة إسرائيل»، بقدر ما كان محلّ ردود فعل فلسطينية وعربية وإسلامية وحتى دولية مستهجنة بسبب طابعه العنصري البَيِّن، ولما يمكن أن يكون له من تداعيات خطيرة على الوضع في الأراضي الفلسطينية وفي المنطقة عموما...

ولعلّه من المُفيد، قبلَ التطرّق إلى هذه التداعيات، أن نتوقف عند أهمّ ما جاء في الأحد عشر بندا التي يتكون منها هذا القانون الذي هو أشبه بـ«قانون دستوري» في دولة ليس لها دستور رغم مرور سبعين سنة على قيامها، والذي يكرّس يَهُودِيَّةَ الدولة، ويجعل منها قيمَتَهَا العليا، ومرجعيَّتَهَا القانونية والمعنوية الأولى:

1- يتعلّق البند الأول من القانون بالمبادئ العامة، وتنصّ الفقرة (أ) منه على أنّ «أرض إسرائيل هي الوطن التّاريخي للشعب اليهودي وفيها قامت دولة إسرائيل»، أما الفقرة (ب) فتنصّ على أنّ «دولة إسرائيل هي الدولة القومية للشعب اليهودي، وفيها يقوم بممارسة حقه الطبيعي والثقافي والديني والتاريخي لتقرير المصير» بينما تؤكد الفقرة (ج) على أنّ «ممارسة حقّ تقرير المصير في دولة إسرائيل حصرية للشعب اليهودي»، وتنطوي هذه المبادئ على جملة من مغالطات الايديولوجية الصهيونية التي من أهمها أنها تؤسّس حقّ الشعب اليهودي في تقرير مصيره على ما تسمّيه «تراثه الثقافي والتاريخي» الذي تربطه بفلسطين رغم أنّ وجوده الاستيطاني فيها طارئ عليها وحديث العهد بها، ثم إنّها تتجاهل أنّ إسرائيل ما كانت لتقوم لولا تشريد الشعب الفلسطيني صاحب الأرض الشرعي بالقوة، وهي إذ تجعل حق تقرير المصير حكرا على اليهود، تحرم العرب الفلسطينيين الذين وقعوا تحت الاحتلال الإسرائيلي في حرب 1948، والذين يشكّلون خُمُسَ المواطنين في إسرائيل، من هذا الحقّ ومن حقوقهم القومية بصفة عامة.

2 - ينصّ البند الثالث على أنّ «القدس الكاملة والموحَّدَة هي عاصمة إسرائيل»، ويضرب هذا البندُ بوضع القدس الذي يجب، كما تمّ الاجماع على ذلك دوليا، أن يُحَدَّدَ من خلال التفاوض بين الجانبين الفلسطيني والإسرائيلي، عرضَ الحائط.

3 - تؤكد الفقرة (أ) من البند الرابع أنّ العِبْرِيَّة هي لغة الدولة الرسمية، بينما تجرّد الفقرة (ب) اللغة العربية من طابعها الرسمي، حيث تنص على أنّ «اللغة العربية لها مكانة خاصة في الدولة» وأنّ «تنظيم استعمال اللغة العربية في المؤسسات الرسمية أو في التوجّه إليها يكون بموجب القانون»، ورغم أنّ الفقرة (ج) تؤكد أنّ ما تقدّم لا يمسّ بالمكانة الممنوحة فعليًّا للغة العربية، فإنّ عدم تدقيق حدود «المكانة الخاصIة» التي يمنحها لها، يُتَوَقَّعُ أن يؤديَ إلى تهميشها.

4 - ينصّ البند الخامس على أنّ «تكون الدولة مفتوحة أمام قدوم اليهود ولمّ الشتات»، وهو بذلك يمنح الحقّ لكل يهودي في الهجرة إلى إسرائيل والحصول على الجنسية الإسرائيلية، لكنه في المقابل يسكت عن حقّ اللاجئين الفلسطينيين أصحاب البلاد الشرعيين في العودة إلى ديارهم، كما إنّه يعطي الأفضلية لليهود في العالم على العرب الفلسطينيين.

5- يوضّح البند السّادس علاقة الدولة مع الشعب اليهودي، فيؤكد في الفقرة (أ) على أنّ الدولة «تهتمّ بالمحافظة على سلامة أبناء الشعب اليهودي ومواطنيها الذين تواجههم مشاكل بسبب كونهم يهودًا أو مواطنين في الدولة»، كما يؤكّد في الفقرة (ب) على أنّ الدولة «تعمل في الشّتات للمحافظة على العلاقة بين الدولة وأبناء الشعب اليهودي»، وفي الفقرة (ج) على أنّها «تعمل على المحافظة على لميراث الثقافي والتاريخي والديني اليهودي لدى يهود الشتات»، وواضح من هذا البند أنّ القانون يتعامل مع أتباع الديانة اليهودية في إسرائيل والعالم على أساس أنّهم شعب واحد عابر للحدود والقارات واللغات والقوميات، ومعنى ذلك أنّ إسرائيل هي بالنسبة إليه دولة لجميع يهود العالم، وليست فقط دولة اليهود الذين يعيشون فيها.

6 - ينصّ البند السابع على أنّ الدولة تعتبر تطوير الاستيطان اليهودي قيمة قومية، وتعمل على تشجيعه ودعم إقامته وتثبيته.

7 - ينصّ البند الثامن على أنّ «التقويم العبري» هو التقويم الرسمي للدولة، وإلى جانبه يكون التقويم الميلادي تقويمًا رسميًّا.

8 - ينص البند الحادي عشر على أنّ أيّ تغيير في هذا القانون يستلزم أغلبية مطلقة من أعضاء الكنيست. وهو بذلك يحصّن هذا القانون من إمكانية تغييره أو إلغائه.

ولعل أهمّ ما يمكن استخلاصه مما سبق هو:

• أنّ هذا القانون يضعُ نفسه فوق جميع القوانين الأخرى.

• أنّ الهدف منه هو حماية شخصية الدولة القومية للشعب اليهودي، وتثبيت قيمها كدولة يهودية أوّلا وديمقراطية ثانيا.

• أنّه، بناء على ذلك، يجعل يهودية الدولة، مثلما يريد المعسكر اليهودي المتطرف الذي يتألّف من تحالف اليَمِينَيْنِ القوميّ والدينيّ، سابقة على ديمقراطيتها، فالدولة، على هذا الأساس، هي يهوديّة من حيث «الجوهر»، وديمقراطيّة من حيث «الشكل»، لا سيما أنّ ديمقراطيتها ديمقراطية لليهود وحدهم، وهذا ما يضع العرب الفلسطينيين من مواطني إسرائيل، في موضع المواطنين من درجة ثانية.

• أنّه يتناقض مع المشروع الصهيوني كما تمّ تحديده في إعلان الاستقلال الذي نصّ عند قيام إسرائيل سنة 1948، على أنّ الدولة «سَتُنَمِّي البلاد لفائدة جميع مواطنيها وستتأسّس على مبادئ الحرية والعدالة والسلام وستضمن المساواة الكاملة في الحقوق الاجتماعية والسياسية لكل المواطنين دون ميز بسبب العقيدة أو العرق أو الجنس، فالتمييز هو لُبُّهُ، والرسالة التي يرسلها هي رسالة اقصائية بامتياز.

• أنّه يرسّخ قواعد الثقافة اليمينية المتطرفة، ويجعل منها عقيدة الدولة بالنصّ، وهو، بذلك يفتح الباب واسعًا، من الناحية القانونية، أمام مؤسساتها لممارسة المزيد من أشكال التمييز ضد المواطنين العرب الفلسطينيين، ولحرمانهم من حقوقهم القومية.

• أنّه، على العموم، يكثّف الأيديولوجية الصهيونية ويثبّت قواعد التيار اليميني المتطرف، وهو بذلك يجهض أي نزعةٍ مدنيةٍ ترمي إلى إقامة دولة المواطنة، أي الدولة التي تساوي بين جميع مواطنيها، حيث أنّه يشرّع التمييز ضدّ العرب الفلسطينيين، ويضع سقفا لتطلعاتهم، ويفرض عليهم شروطا مجحفة في ممارسة اللعبة الديمقراطية الإسرائيلية.

وانطلاقا من جملة هذه الحيثيات، فإنّ الملاحظين يجمعون على أن قانون «إسرائيل الدولة القومية

للشعب اليهودي» يكتسي خطورة بالغة لا على الشعب الفلسطيني وحده، وإنّما على شعوب المنطقة ككلّ. وتأتي خطورة هذا القانون أولا من خصائصه الذاتية، وثانيا من السّياق الذي تنزّل فيه.إنّ هـــذا القـــانون، بالنسبة إلى الشعب الفلسطيني، يمثل إعلان حرب جديدة أشدّ وأشرس عليه وعلى هويته الوطنية، إذ من المنتظر أن تعمد إسرائيل في ظله، وبالاستناد إليه، وانطلاقا من استراتيجيتها القائمة على التمييز العنصري والتطهير العرقي، إلى تكثيف محاولاتها الرّامية إلى اقصاء الفلسطينيين وإلغائهم والاستمرار في عمليات تشريدهم وتهجيرهم القسري وطردهم من أرضهم. ومما يُضَاعِفُ من خطر هذا القانون، أنّه، كما حذّر من ذلك النائب العربي في الكنيست الإسرائيلي مسعود غنايم، يشمل الضفّة الغربية، حيـــث أنّه يعتبر أنّ «أرض إسرائيل هي الوطن التاريخي للشعب اليهودي».

وفي هذا الصدد، يجدر التنبيه إلى أنّ بعض الملاحظين يرون أنّ القانون يشكّل خطوة متقدّمة على طريق ضَمٍّ المزيد من الأراضي الفلسطينية والعربية المحتلّة، وأنّه سيعمل على «تطبيع» الوجود الإسرائيلي في الضفـــة الغربية حتى يجعل منها إقليما إســرائيليا عاديا، عبر إخضاع المستوطنين اليهـــود فيـــها لسيادة إسرائيل السياسية والقانونية بعد أن كانت خاضعة، تاريخيّا، للقانون العسكري الاسرائيلي. أما بالنسبة إلى المنطقة، فإنّ إقـــرار هذا القانون يعني أنّ الصراع بين إسرائيل والعالم العربي دخل في طور جديد.

وهو، من ناحية أخرى، يُنْذِر بتأجيج الصراعات المذهبية القائمة، وإيقاد المزيد منها بين العرب والمسلمين من أجل التغطية على ما تبيّتُ إسرائيل اقترافَه في حق الفلسطينيين... وليس من باب الصدفة أن يتزامن إقراره مع ما تشهده الحرب في اليمن وعليه، هذه الأيام، من تصعيد خطير يُخْشَى أن يُؤدّي إلى تدويلها بصورة أصرح، وإلى توسيع نطاقها بإشعال الحرب التي يُرَادُ ويُخَطَّطُ لإشعالها، منذ زمن طويل، بين دول الخليج وبين إيران أي بين السنة والشيعة. على أنّ المخاوف من تداعيات هذا القانون تصبح أشد وطأة، حين ننظر الى السياق الفلسطيني والإقليمي والدولي الذي تم إقراره فيه، فهو جاء في وقت ما يزال فيه الفلسطينيون، رغم جميع النكبات التي حلت ويُتَوَقَّع أن تحلّ بقضيتهم، يصرّون إصرارا غريبا على التشبث بحالة الانقسام التي ذهبت بريحهم، وضيعت حقوقهم...أما إقليميا فقد جاء في ظرف يعيش فيه العالمان العربي والإسلامي أردأ وأسوأ الأحقاب في تاريخهما المعاصر، وأما دوليا فإنّه جاء بعد أسابيع معدودة من نقل سفارة الولايات المتحدة الامريكية إلى القدس، وهو ما شكل غطاء لا أخلاقيا له، وللسياسات الإسرائيلية التي تستهدف طرد الشعب الفلسطيني من أرضه وإحلال المستوطنين من كل بقاع العالم محلّه.

ثم إنّه من الواضح أنّه يندرج في إطار صفقة القرن التي تعتبر محاولة لتصفية القضية الفلسطينية نهائيا، ولا شك أنّه سيسهم في تمريـــر هذه الصفقة مـــن خـــلال تكريس الأمر الواقع على الأرض، ســـواء من خلال تهويد الأرض الفلسطينية أو الضغط على الفلسطينيين لاقتلاعهم من وطنهم التاريخي. وبالإضافة الى ذلك، فإنّه يقوّض التسوية السلمية ويقضي على حل الدولتين، لا سيما أنّ واشنطن ماضية في دعم السياسات الإسرائيلية بكل الوسائل، وهو ما يتجلّى خاصة في تجميد مساهمتها في ميزانية وكالة الأمم المتحدة لغوث اللاجئين الفلسطينيين، فهذا التجميد هو، ظاهريا، وسيلة للضغط على الجانب الفلسطيني من أجل استئناف المفاوضات مع إسرائيل، وضمنيا، هو أداة لخنق الوكالة من أجل دفن قضية اللاجئين نهائيا...

وفي ظلّ هذا المشهد القاتم، يبقى السؤال عن الردود المفترضة على ما يحدث، حائرا يتردد على الألسنة وفي الاذهان، وفي رأيي فإنّ الجواب على قانون «إسرائيل الدولة القومية للشعب اليهـــودي» يمكن أن ينبنـــيَ على العناصر الخمسة التالية:

1 - لا بدّ أن يسارع الشعب الفلسطيني إلى تدارك أمره، والتغلب على خلافاته، من أجل توحيد صفوفه، وحشد كل طاقاته للدفاع عما تبقى من أرضه ومن حقوقه، ولصيانة مقومات هويته مما يراد لها من تذويب...

2 - لا بد أيضا أن تهجر الدول العربية والإسلامية عادةَ البيانات البائسة التي ألفت إصدارها كلّما حلّت بالقضية الفلسطينية مصيبة جديدة، وأن تتخذ موقفا جديا ونافذا من سياسات إسرائيل الجائرة ومن انتهاكاتها السافرة للحقوق الفلسطينية والعربية...

3 - لا بدّ من تعزيز وتعميق الحراك الذي بدأت منظمة الأمم المتحدة تشهده في مواجهة القانون الإسرائيلي العنصري الجديد، وهو ما تجلّى مثلا في تنديد المفوضية السامية لحقوق الانسان به.

4 - لا بدّ من العمل على الاستفادة من التّيار المناهض لهذا القانون داخل إسرائيل نفسها، وهو تيار فاعل إلى حد أنّ الكنيست الإسرائيلي أصدر في الآونة الأخيرة قوانين للحدّ من فاعليته، ولتحجيم تحركاته التي توثق، على غرار تحرّكات المنظمة الاسرائيلية غير الحكومية «كسر حاجز الصمت»، جرائم الاحتلال وتجاوزاته في الضفة الغربية وخلال الحروب المتتابعة على قطاع غزة.

5 - لا بدّ من العمل، على الصعيد غير الحكومي، وإن أمكن على الصعيد الحكومي أيضا، على تضافر كافة الجهود الفلسطينية والعربية والدولية، مع استخدام كافة الوسائل التكنولوجية الحديثة المتاحة، من أجل فضح هذا «الهوس العنصري الإسرائيلي» الذي يرشح من قانون «إسرائيل الدولة القومية للشعب اليهودي»، خاصة وأنّ هذا القانون أبرز أنّ إسرائيل التي كانت تدعي أنّها «الدولة الديمقراطية الوحيدة في الشرق الأوسط»، باتت اليوم «الدولة العنصرية الوحيدة في العالم باسره».

م.ا.ح.

وزيرة الدولة البريطانية للتعاون الدولي بينيلوب موردنت
ضمانات بـ7 مليارات د.ت لفائدة المستثمرين البريطانيين في تونس

أكدّت وزيرة الدولة البريطانية للتعاون الدولي بينيلوب موردونت Mordaunt Penelope في حديث خاصّ لـ«ليدرز العربية» أن مذكّرة التفاهم التي وقعت عليها مع وزير الاستثمار والتنمية والتعاون الدولي، ستدعم الاستثمارات الأجنبية المباشرة في تونس. وتوقّعت موردونت في الحديث، الذي حضرته سفيرة بريطانيا في تونس لويز دي سوسا، أن يصل عدد السيّاح البريطانيين القادمين إلى تونس خلال الموسم الحالي إلى 100 ألف سائح «بما يساهم في انتعاش القطاع السياحي في تونس» كما قالت. وعادت موردونت بالذاكرة إلى الفترة التي كانت تشغل فيها منصب وزيرة الدفاع، كاشفة أنّها لعبت دورا في رفع الحظر عن سفر السيّاح البريطانيين إلى تونس، إبّان العملية الإرهابيّة التي جدّت في سوسة سنة 2015. وفي ما يلي نص الحديث:

خلال الندوة السنوية للسفراء والقناصل العامّين البريطانيين المنعقدة يوم 5 جويلية 2016 بلندن تمّ التأكيد على أنّ خروج بريطانيا من الاتحاد الأوروبي لا يعني تقلّص الاهتمام بعلاقات المملكة المتحدة مع بلدان شمال أفريقيا، كما أكّد مسؤولون بريطانيون أنّ بلدكم يظلّ ملتزما بتنمية التعاون مع تونس، لأنّ نجاحها في الانتقال الديمقراطي وتطوير اقتصادها يكتسيان بالغ الأهمية في ضمان الاستقرار والأمن في المنطقة، ما هي المبادرات التي قامت بها حكومتكم لتعزيز هذا التعاون؟

لمغادرة المملكة المتحدة للاتحاد الأوروبي مزايا كثيرة إذ ستتيح لنا المزيد من الفرص والمزيد من المرونة في ما يتعلّق بالعلاقات الثنائية والمبادلات التجارية بين المملكة المتحدة والجمهورية التونسية. وقد يمثّل ذلك فرصة لإزالة بعض العراقيل التي كانت تقف حجر عثرة أمام هذه المبادلات بين تونس وبريطانيا، بصفتها عضوا في الاتحاد الأوروبي. في الواقع العلاقات بين البلدين تقدّمت كثيرا، ويكفينا أن نشير إلى الزيادة الهامة في المبالغ المالية التي وضعت في سبيل دعم التعاون مع تونس خلال السنوات الأخيرة. وقد كانت لي لقاءات مع عدد من المسؤولين التونسيين للبحث في سبل تعزيز هذا التعاون من بينهم محافظ البنك المركزي ووزير التنمية والاستثمار والتعاون الدولي، الذي توليت معه التوقيع على مذكّرة تفاهم ستتيح إقامة تعاون وثيق بين الجهات التونسية ومنظّمة تدعى Expectation State، ومن شأن مذكرة التفاهم هذه أن تدعم الاستثمارات الأجنبية المباشرة في تونس.

وإلى جانب التعاون الاقتصادي تعرّضنا خلال هذه اللقاءات إلى المسائل ذات الاهتمام المشترك منها بالخصوص الوضع في ليبيا والاستقرار في المنطقة.

ماذا كان حصاد منتدى الأعمال التونسي البريطاني الذي انعقد في سبتمبر الماضي بلندن، وكيف يمكن أن تساهم مثل هذه اللقاءات في استقطاب الاستثمارات البريطانية إلى تونس؟

في الواقع هناك عدّة تجارب استثمارية ناجحة رعتها السفارة البريطانية في تونس. وبالإضافة إلى تلك التجارب المُوفّقة، كانت لي فرصة للحديث مع مسؤولين تونسيين عن المجالات التي يرون فيها فرصا للاستثمار وبعث مشاريع واعدة بإيجاد فرص العمل وبتنمية العلاقات الثنائية. وأوّل ما نُشدّد عليه هنا هو إيجاد المناخ الملائم وبيئة الاستثمار المثالية، لكي يتمكنّ المستثمرون من معرفة الفرص المتاحة في بلدكم ويشعرون بالثقة. وفي الحقيقة هناك خطوات بسيطة يمكن أن يكون لها مردود جيّد في هذا الصدد، من ذلك أنّني قمت مع وزير التنمية والاستثمار والتعاون الدولي التونسي بوضع نوع من الآلية، بالتعاون مع وزارة التجارة البريطانية، كي نُعرّف المستثمر البريطاني بفرص الاستثمار←

في تونس ونُنمّي لديه الثقة في البيئة الاقتصادية التونسية كوجهة يمكن الاستثمار فيها بكّل نجاعة ومردودية.

بالإضافة إلى ذلك ستساعد مذّكرة التفاهم التي تمّ التوقيع عليها، على تحقيق هذا الهدف المُتمثّل في بناء الثقة لدى المستثمر البريطاني حتّى تكون لديه الرغبة في الاستثمار في تونس، مع العلم أنّ مذكرة التفاهم هذه، ستُتيح أيضا إيجاد نوع من الشبكة التي يُمكن أن نُعوّل عليها لإيصال الرسالة إلى المستثمر البريطاني في بلده. هناك إذا فرصةٌ وهناك إمكانات وعملٌ ينبغي القيام به في هذا المضمار. وأودّ أن أشير هنا إلى تخصيص بريطانيا مبلغ مليار جنيه استرليني (7 مليارات دينار) لهذا العمل.

هذا مبلغ زهيدٌ! ؟

(السفيرة البريطانية لويز دي سوزا):
كيف؟ زهيدٌ؟

طبعا، مقارنة بحجم استثمارات البلدان الأخرى في تونس؟

(السفيرة): هذا ليس حجم استثماراتنا في تونس، وإنّما حجم الضمانات التي تقدّمُها الدولة للمستثمرين البريطانيين في تونس.

واضح...

وهذا من شأنه أن يُشجّع المستثمرين على القدوم إلى تونس، لكن ليس هذا هو الإجراء الوحيد، فهناك حوافز أخرى ترمي أيضا لاستقطاب المستثمرين حتى يشعروا بالطمأنينة على استثماراتهم.

بخصوص دعم الإصلاحات السياسية والاقتصادية في تونس، أوضح الجانب البريطاني أنّ له أربعة أهداف ذات أولوية على صعيد التعاون مع تونس في إطار شراكة المملكة المتحدة مع العالم العربي : 1 - المشاركة السياسية والحوكمة الرشيدة 2 - حريّة التعبير واستقلالية وسائل الإعلام 3 - حلّ الخلافات الداخلية وإصلاح قطاع الأمن 4- تنمية دائمة وشاملة ماذا تحقّق من هذه الأهداف الأربعة ؟

في الحقيقة هذه المجالات الأربعة واسعة ولا تمثّل شيئا محدّدا. ما يجب الاهتمام به هو ما يمكن أن تقدّمه المملكة المتّحدة من قيمة مضافة تتعلّق بالخبرة الفنيّة. وهناك العديد من المجالات التي قدّمت فيها المملكة المتحدة من خبرتها الكثير للحكومة التونسية. وفي نهاية المطاف ما تحتاجه الوزارات والمؤسّسات في تونس، هو المعرفة والخبرة، فعلى سبيل المثال هناك رغبة كبيرة لدى المؤسّسات التربوية التونسية للاستفادة من هذه الخبرة في مجال تعليم اللغة الإنقليزية وبإمكان المملكة البريطانية أن تقدّم الكثير فيما يخصّ الطرق الحديثة لتدريس هذه اللغة والتدريب عليها سواء هنا في تونس أو في إطار التبادل مع المؤسّسات البريطانية العاملة في هذا المجال. وقد استعرضنا القطاعات التي يمكن لتونس أن تستفيد فيها من الخبرة الفنية البريطانية، فمدينة لندن معروفة في العالم بمؤسّساتها التربوية والجامعية وبكونها مركزا مهمّا للشؤون المالية والقانونية، وبإمكان الوزارات والمؤسّسات التونسية أن تستفيد من الخبرات البريطانية في هذه المجالات.

من جهة أخرى أودّ أن أشير إلى أنّي كنت وزيرة للدفاع إبّان العملية الإرهابيّة التي جدّت في مدينة سوسة [في 26 جوان 2015] وإثر هذه العملية كان لي دور في اتخاذ الإجراءات اللازمة لرفع الحظر عن سفر السيّاح البريطانيين إلى تونس، ومن المتوقّع أن يصل عدد السيّاح البريطانيين خلال هذا الموسم إلى 100 ألف سائح، بما سيساهم في انتعاشة القطاع السياحي في تونس.

لكن قرار رفع الحظر يظلّ جزئيا ونحن نريد أن يكون شاملا لكافة مناطق البلاد؟

إذا ما تأمّلتم في الخارطة التي نشرناها يشمل قرار رفع حظر السفر أغلب مناطق البلاد التونسية، باستثناء المناطق العسكرية والمناطق الحدودية التي لا تزال فيها التهديدات الإرهابية محتملة، وننصح مواطنينا بالتقيّد بهذه التعليمات.

بوصفك وزيرة الدفاع سابقا نسألك عن مضمون التعاون العسكري التونسي البريطاني، إذ وعدت لندن بتقديم مساعدات لتحسين قدرات تونس في هذا الميدان، فهل ستتخذ شكل مُعدّات وأسلحة أم تدريب أم تعاون استخباري أم مجالات أخرى؟

لا يتّسع الوقت للحديث بعمق وبالتفصيل عن هذا النوع من التعاون الثنائي، لكن ركّزت المملكة

بريطانيا خصّصت مليار جنيه استرليني (7 مليارات دينار تونسي) بعنوان ضمانات تقدّمُها للمستثمرين البريطانيين في تونس

المتحدة على تطوير العمل المشترك الثنائي بُغية تحديد المواطن التي تحتاج فيها تونس للدعم أكثر من سواها. ولم تقتصر هذه الشراكة على وزارة الدفاع بل شملت أيضا وزارات أخرى بحسب الحاجات التي تمّ تحديدها في إطار مُجمل الشراكة. وما يمكن أن نقوله عن هذه الشراكة هو أنها شاملة وأوفت بجُلّ الاحتياجات التي عبّر عنها الجانب التونسي.

نلاحظ اليوم بخصوص الأزمة في ليبيا استقطابا في المواقف بين دول تدعو إلى إجراء الانتخابات في ديسمبر القادم، مهما كانت الظروف السائدة في البلاد، ودول أخرى تدعو إلى إرجائها إلى أن تستقرّ الأوضاع الأمنية فيها، ما هو موقف المملكة المتحدة من هذه المسألة؟

الموقف البريطاني من الوضع في ليبيا كان دائما حذرا فنحن نعتقد أنّه علينا التقيّد بالتدرّج حتّى لا نصاب بخيبة أمل ونقع في المحظور، لأنّ الوضع لم ينضج ولم يستقرّ بما فيه الكفاية لكي تنجح الانتخابات. لقد تمّ في الفترة الأخيرة تعيين وزير خارجية جديد وَإنّي أفسح له المجال للإفصاح عن الموقف البريطاني في هذا الصدد، علما أنّ هناك عملا هامّا ومتضافرا على المستوى الدولي يرمي إلى حلحلة الأوضاع في ليبيا وإحلال الانفراج السياسي في هذا البلد.

أجرت شبكة سكاي نيوز مؤخّرا عملية سبر آراء بيّنت أنّ 52 بالمائة من المستجوبين يرون أنّ خروج بريطانيا من الاتحاد الأوروبي له انعكاسات جدّ سلبيّة على الاقتصاد الوطني وأنّ 78 بالمائة منهم يعتقدون أنّ حكومة تيريزا ماي تتعامل بشكل سيّء مع ملفّ الـ«البريكست»، ألا يؤشّر هذا الى تحوّل في الرأي العام البريطاني منذ استفتاء جوان 2016؟

في الواقع الوضع الاقتصادي البريطاني جيّد على عكس ما يُقال حاليا، وأيضا على عكس ما تردّد في فترة إجراء الاستفتاء من أنّ الوضع سيسوء في صورة خروج بريطانيا من الاتحاد الأوروبي. وبالإضافة إلى المحادثات التي تتمّ حاليا مع المفوضيّة الأوروبية بخصوص عملية الخروج، هناك أيضا محادثات عديدة تجرى مع الأعضاء السبعة والعشرين في الاتحاد، وأعتقد أن الآفاق واعدة بالنسبة إلى المبادلات التجارية والاقتصادية والتعاون الأمني مع هذه البلدان. وما يهمّ بريطانيا هو أن يكون لها تعاون مع كلّ بلدان العالم بما فيه الدول السبع وعشرين الأعضاء في الاتحاد الأوروبي، التي أبدت ارتياحها للتعاون مع المملكة المتحدة في الجوانب الاقتصادية والتجارية والأمنية. أمّا سبر الآراء الذي أشرت إليه فهو لا يمكن أو يكون أوسع من الاستفتاء الذي أعطى نتيجة قاطعة، وهي أنّ الشعب البريطاني يريد أن تخرج بلاده من الاتحاد الأوروبي.

لكن هناك تحوّلا في الرأي العام البريطاني ؟

في السنـوات القادمة سيكون لنا قول آخـر في ما يتعلّق بالوضع الاقتصادي في بريطانيا.

حاورها عبد الحفيظ الهرڤام ورشيد خشانة

مائويّة الأستاذ الشّاذلي بو يحيى (1918 - 1997)

من أساطين الجامعة التّونسيّة

ينل الأستاذ الشّاذلي بو يحيى ، في حياته وبعد وفاته ، ما هو جدير به من احتفاء وتكريم وتنويه رغم أنّه كان رائدا من روّاد التّعليم العالي في تونس وقامة فارعة من قامات الجامعة التّونسيّة على امتداد أكثر من أربعين سنة وعَلَما من الأعــلام الذّين ساهموا في إشعاع تونس العلميّ، فهو من العرب القلائل الذّيــن حــرّروا فصــولا بدائرة المعارف الإسلاميّة -Encyclopédie de l'Islam ، ولعلّه العربيّ الوحيد الذّي تولّى رئاسة لجنة دكتورا الدّولة بباريس.

ولأنّه كان يشعر بما تُقابَل به عطاءات أهل العلم وجهودهم من عدم المبالاة وقلّة الاكتراث فقد أُثِر عنه أنّه كثيرا ما كان يُردّد بيت أبي العتاهية الذّي يقول فيه :

سَيُعْرَضُ عَنْ ذِكْرِي وَتُنْسَى مَـوَدَّتِي وَيَـحْـدُثُ بَعْـدِي لِلْخَـلِيلِ خَلِيـلُ

وإذ نُحيّي روحه الطّاهرة بمناسبة مرور مائة سنة على ميلاده فإنّنا أردنا أن نقول له وهو في عالم الخلد : لن يُعرض طلبتُكَ وأحبّاؤُكَ عن ذكرك ولن ينسوا مودّتَكَ ولن يحدث لهم بعدكَ من أخلّاء سواكَ ، فقد أورَدْتَهم عيونا صافية وأورَثْتَهم أعلاقا نفيسة وتركتَ لهم ما به يُفاخرون ومنه يستلهمون ويقتبسون. وُلد الأستاذ الشّاذلي بو يحيى سنة 1918 بمدينة سوق الإربعاء (جندوبة) لأب أصيل منطقة الجريد وأمّ تنحدر من أصل جزائريّ، تعلّم الابتدائيّ بجندوبة والثّانوي بالصّادقيّة والعالي بباريس توَّجَهُ بالحصول على الإجازة في العربيّة سنة 1943 فالتّبريز سنة 1949 ، وأخيرا دكتورا الدّولة سنة 1969. ولعلّ أوّل ما يلفت في سيرة الأستاذ الشّاذلي بو يحيى وفاؤه الشّديد للتّعليم عامّة وللجامعة التّونسيّة على وجه الخصوص، فلم يتقلّد مناصب إداريّة لا في ميدان التّربية ولا في غيره من الميادين ولم يضطلع بمسؤوليّات تحول دونه ومباشرة التّدريس، وقد أنفق في فصول العلم ومدرّجات الجامعة اثنتين وأربعين سنة كاملة منها عشر سنوات بالتّعليم الثّانوي (من 1943 إلى 1953) واثنتان وثلاثون سنة بالتّمام والكمال في التّعليم العالي (من 1953 إلى 1985). ولئن أجبرته قوانين الوظيفة العموميّة على التّوقّف عن التّدريس مكرها بعد الإحالة على شرف المهنة – ولم يرض عن ذلك ولم يطب به خاطره – فإنّ نشاطه العلميّ والأكاديميّ لم ينقطع حتّى وفاته، إذ واصل الإشراف على أطاريح دكتورا الدّولة والمشاركة في لجان المناقشة حيث ناقش آخر الأطروحات التّي أشرف عليها يوم 13 أفريل 1994 وهو في السّادسة والسّبعين من العمر، ولعلّه امتياز ينفرد به ويرفعه إلى مرتبة أولئك الذّين نذروا الحياة كلّها للعلم. وممّا يُميّز سيرة الأستاذ الشّاذلي بو يحيى أنّه وقف حياته على خدمة التّعليم العالي ومؤسّساته في تونس حتّى قبل تأسيس الجامعة التّونسيّة. فقد كان، قبل الاستقلال ، صحبة محمود المسعدي من المدرّسين التّونسيّين القلائل بمعهد الدّراسات العليا وذلك منذ سنة 1953.

ولمّا تأسّست دار المعلّمين العليا وانطلق التّدريس بها في بداية السّنة الجامعيّة 1956-1957 كان من الأساتذة المبرّزين الذّين تمّ إلحاقهم بالدّار صحبة الشّاذلي القليبي ومحمّد الطّالبي وفرحات الدّشراوي. وحظيت امتحانات آخر السّنة بحضور عميد الأدب العربيّ طه حسين فاضطلع الأستاذ الشّاذلي بو يحيى بمهمّة مساعدته في الإشراف على تلك الامتحانات.وبعد تأسيس الجامعة التّونسيّة في 1958 كان من الدّفعة الأولى لأساتذة قسم العربيّة بكليّة الآداب والعلوم الانسانيّة وقد ضمّت أحمد عبد السّلام ومحمّد الطّالبي وفرحات الدّشراوي وصالح القرمادي ثمّ التحق بهم في السّنة الجامعيّة 1963 – 1964 عبد القادر المهيري ومنجي الشّملي ومحمّد عبد السّلام والحبيب الشّاوش وعبد المجيد التّركي. وفي تلك الأثناء ساهم صحبة أحمد عبد السّلام في تأسيس مجلّة أكاديميّة رائدة سيكون لها أثر بعيد في الحركة العلميّة بالجامعة وهي «حوليّات الجامعة التّونسيّة»، وسيتولّى الأستاذ الشّاذلي بو يحيى إدارة تلك المجلّة لفترة طويلة من 1969 إلى 1985 ثمّ سيصبح بعد التّقاعد مديرا شرفيّا لها وعضوا في هيئة تحريرها إلى تاريخ وفاته.

من مناقب الأستاذ الشّاذلي بو يحيى أنّه كان مؤمنا بقيمة الإسهام التّونسيّ في إغناء الثّقافة العربيّة وبأهميّة الإضافة التّونسيّة إلى التّراث الإنسانيّ، ذلك أنّه كان صاحب مشروع علميّ متكامل يرمي إلى إبراز مكانة تونس الأدبيّة ومنزلة الأدب التّونسيّ في مختلف عصوره ، فقد جعل موضوع أطروحة دكتورا الدّولة التّي تقدّم بها إلى جامعة باريس- السّربون حول «الحياة الأدبيّة بإفريقيّة في عهد بني زيري « (362هـ/ 555هـ)، ثمّ استكمل هذا المشروع من خلال توجيه ثلاثة من الأساتذة الباحثين إلى إنجاز أطاريح دكتورا دولة حول الحياة الأدبيّة بإفريقيّة في عهود سابقة للدّولة الصّنهاجيّة ولاحقة بها. وعلى هذا النّحو أشرف على أطروحة للأستاذ محمّد المختار العبيدي حول «الحياة الأدبيّة بإفريقيّة في عهد بني الأغلب 184هـ/296هـ)»، وأطروحة للأستاذ محمّد توفيق النّيفر حول «الحياة الأدبيّة بإفريقيّة في العهد الفاطمي (296هـ/362هـ)»، وأطروحة للأستاذ أحمد الطّويلي حول «الحياة الأدبيّة بتونس في العهد الحفصي (1230هـ/1574م)».

فإذا ألّف القارئ بين هذه الأطاريح الأربع وجدها تُغطّي ثمانية قرون (من القرن 2هـ إلى القرن 10هـ) من التّاريخ الأدبيّ التّونسيّ وتُعرّف بجلّ أعلامه وما أنتجوه من آثار مختلفة في الشّعر والنّثر والنّقد الأدبيّ. وتُضاف إلى ذلك كلّه الجهود التّي بذلها الأستاذ الشّاذلي بو يحيى في تحقيق المخطوطات التّونسيّة وتقديم الكتب المتّصلة بالأدب في تونس، فقد حقّق كتاب ابن رشيق القيرواني «قراضة الذّهب في نقد أشعار العرب»، وكتاب محمّد القروي «حادثة جويّة على الاستطلاعات الباريسيّة»، وقدّم كتاب «ورقات عن الحضارة العربيّة بإفريقيّة التّونسيّة لحسن حسني عبد الوهاب» بأجزائه الثّلاثة ، وكتاب «تاريخ إفريقيّة والمغرب» للرّقيق القيرواني وغير ذلك كثير. ولم يقصر اهتمامه بالأدب التّونسي على عصوره القديمة فحسب بل عُرف للأستاذ الشّاذلي بو يحيى اهتمام خاصّ بعدد من الأدباء التّونسيّين المعاصرين من ذلك عنايته بأدب أبي القاسم الشّابّي ومحمّد الحليوي تشهد على ذلك مقالاته المتنوّعة عن «شاعريّة» الشّابّي وتقديمه لبعض مؤلّفات الحليوي. لا يملك النّاظر في مقالات الأستاذ الشّاذلي بو يحيى والمستمع إليه محاضرا أو مناقشا إلّا أن يُعجب بقدرته الخارقة على المجادلة والخصام العلميّ وبراعته الفائقة في الحجاج والمنافحة اللّذين ينتهيان إفحاما وتبكيتا، وحسبنا أن نذكر ثلاثة أمثلة مشهورة عند زملائه وطلبته :

• أوّلها مقاله بحوليّات الجامعة التّونسيّة (العدد 1) حول تاريخ وفاة إبراهيم الحصري حيث أثبت بالحجّة الباهرة والدّليل القاطع وقوع بعض كبار مؤرّخي الأدب من أمثال الصّفدي صاحب «الوافي بالوفيات» وابن بسّام صاحب «الذّخيرة» وحاجي خليفة صاحب «كشف الظّنون» في الخطإ عند ترجمتهم لابراهيم الحصريّ وضبط تاريخ وفاته.

• ثانيها مقالان بالحوليّات كذلك (العدد 8 والعدد 9) حول نشر كتاب «قطب السّرور في وصف الأنبذة والخمور» للرّقيق القيرواني حيث طعن على بعض المعطيات الواردة في فصل «ابن الرّقيق» بدائرة المعارف الإسلاميّة الذّي حرّره الأستاذ محمّد الطّالبي. ولئن ردّ الطّالبي على المقال الأوّل فإنّ تعقيب الأستاذ بو يحيى جاء أنموذجا أمثل في الحجاج المفحم الدّقيق وآية من آيات المجادلة التّي لا تترك للخصم مهربا دون الإذعان والتّسليم.

• ثالثها مقال بمجلّة الفكر (السّنة 6 ، العدد 3 ، ديسمبر 1960) ردّ فيه على النّاقد الفلسطيني الشّهير إحسان عبّاس الذّي أنكر شاعريّة الشّابّي عند تحليل قصيدته «أيّتها الحالمة بين العواصف» ، فكان مقال الأستاذ بو يحيى الذّي حمل عنوان «النّقد فنّ صعب المراس» درسا بليغا لإحسان عبّاس في أصول النّقد الأدبيّ وآلياته وطرائقه ومقاييسه.

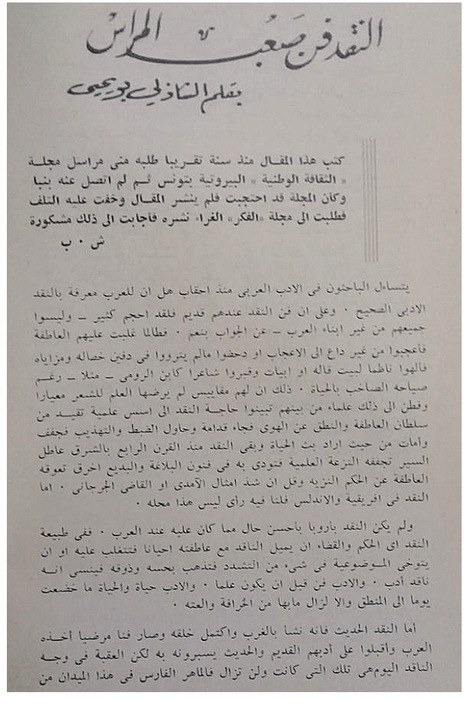
النّقد فنّ صعب المراس

بقلم الشاذلي بو يحيى

كتب هذا المقال منذ سنة تقريبا طلبه منّي مراسل مجلة « الثقافة الوطنية » البيروتية بتونس ثم لم اتصل عنه بنبأ وكان المجلة قد احتجبت فلم ينشر المقال وخفت عليه التلف فطلبت الى مجلة «الفكر» الغراء نشره فاجابت الى ذلك مشكورة

ش . ب

يتساءل الباحثون في الادب العربي منذ احقاب هل ان للعرب معرفة بالنقد الادبي الصحيح . وعلى ان فن النقد عندهم قديم فلقد احجم كثير – وليسوا جميعهم من غير ابناء العرب – عن الجواب بنعم . فطالما غلبت عليهم العاطفة فاعجبوا من غير داع الى الاعجاب او دحضوا مالم يتروقوا في دفين خصاله ومزاياه فالهوا ناظما لبيت قاله او ابيات وقبروا شاعرا كابن الرومي – مثلا – رغم صياحه الصاخب بالحياة . ذلك ان لهم مقاييس لم يرضها العلم للشعر معيارا وفطن الى ذلك علماء من بينهم تيبنوا حاجة النقد الى اسس علمية تقيه من سلطان العاطفة والنطق عن الهوى فجاء قدامة وحاول الضبط والتهذيب فجفف وأمات من حيث اراد بث الحياة وبقي النقد منذ القرن الرابع بالشرق عاطل السير تجفه النزعة العلمية فتودى به في فنون البلاغة والبديع الحرق تعوقه العاطفة عن الحكم النزيه وظل ان شذ امثال الآمدي او القاضي الجرجاني . اما النقد في افريقية والاندلس فلنا فيه راي ليس هذا محله .

ولم يكن النقد باوربا باحسن حال مما كان عليه عند العرب . ففي طبيعة النقد اي الحكم والقضاء ان يميل الناقد مع عاطفته احيانا فتتغلب عليه او ان يتوخى الموضوعية في شيء من التشدد فتذهب بحسه وذوقه فينسى انه ناقد أديب . والادب فن قبل ان يكون علما . والادب حياة والحياة ما خضعت يوما الى المنطق ولا لزال مابها من الخرافة والعته .

اما النقد الحديث فانه نشا بالغرب واكتمل خلقه وصار فنا مرضيا أخذه العرب وأقبلوا على أدبهم القديم والحديث يسبرونه به لكن العقبة في وجه الناقد اليوم هي تلك التي كانت ولن تزال فالماهر الفارس في هذا الميدان من

د. الحبيب الدريدي

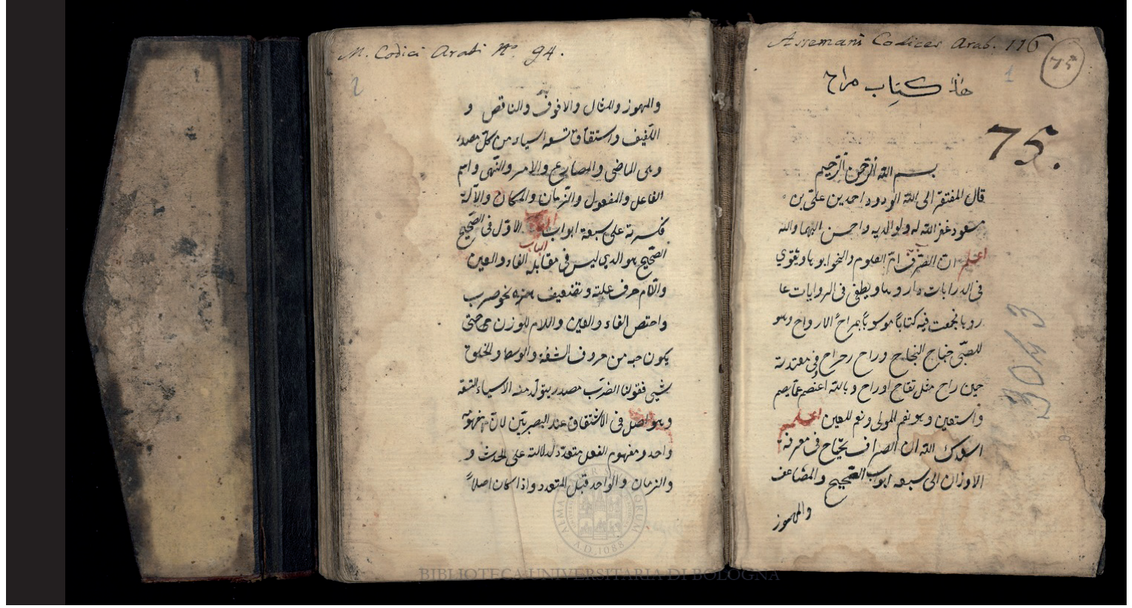

المخطوطات العربية في إيطاليا

• بقلم د. عز الدّين عناية

على مدى عهود حصل تدفّق للمخطوطات العربية باتجاه أصقاع شتّى، بطرق متنوّعة، حتّى باتت لا تخلو مكتبة من مكتبات كبريات المدن العالمية من حيازة قسط من ذخائر التراث العربي. وقد أشاع المخطوط العربي خلال تلك الرحلة معارف جليلة في لغات عدّة بشكل قلّ نظيره. من تلك الثروة تحوز إيطاليا، وعلى غرار سائر الدول الغربية، نصيبا معتبرا. غير أنّ تلك المخطوطات لا تزال شبه مطمورة. فقد حصلت بمناسبة انعقاد مجمع فلورنسا سنة 1441م أولى عمليات تجميع المخطوطات الشرقية من قبل مكتبة الفاتيكان في روما. من خلال ما استجلبه من نصوص رجال دين مشارقة، قدِموا من الإسكندرية وبيت المقدس للمشاركة في أشغال المجمع. ←

ثمّ في مرحلة لاحقة تطوّر تعقّب المخطوطات مع تدشين مطبعة ميديشيا في فلورنسا (1584). وكانت أولى نسخ المخطوطات التي حازت عليها المطبعة، على ما يورد مؤلف «طريق الحروف» (2012)، متأتّيةً ممّا وهبه البطريرك السرياني إثناسيوس نعمة الله (ت. 1587م)، من مخطوطات عن أسرار الكون، وعلم الفلك، وعلم الهيئة.

جوسيبّي كابروتّي ومخطوطات اليمن

يُقدّر عدد المخطوطات اليمنية في إيطاليا بثلاثة آلاف وثلاثمائة مخطوط. حاز جوسيبي كابْروتّي نصيب الأسد في ترحيل المخطوطات اليمنية نحو إيطاليا، وكان له الدّور الأكبر في إدخال معظم المصنّفات اليمنية إلى إيطاليا وإلى إمارة موناكو. تورد الباحثة فالنتينا روسّي ضمن مؤلّف «المطبوعات الإيطالية» (2000) أنّ وصول كابروتي إلى مدينة الحديدة اليمنية كان سنة 1885، ثمّ استقرّ به المقام في صنعاء، حيث مكث هناك ما يزيد عن ثلاثة عقود. جمّع

خلالها كمّا وفيرا من المخطوطات، تمّ ترحيلها خلسةً نحو ميلانو. فقد شحن قرابة الستين صندوقا من المخطوطات حوَتْ ما يربو عن 1800 مخطوط. ولم تحل سنة 1909 حتّى كانت 1610 مخطوطات عربية من مجموعة كابروتي ضمن ذخائر مكتبة أمبروزيانا. لينضاف خلال العام 1914 مائتان وخمسون مخطوطا آخر من «مجموعة كابروتي» وردت إلى أمبروزيانا بواسطة السيناتور لوكا بلترامي وهكذا بات بحوزة المكتبة 2040 مخطوطا ورد جميعها من جنوب الجزيرة العربية.

الملامح والتوزّع والفهارس

تمثّل بلاد المغرب إلى جانب اليمن وسوريا ومصر الفضاءات الرئيسية التي تأتّى منها المخطوط العربي، وهي متواجدة في سبع وأربعين مدينة. ويتجمّع ثلثا تلك المخطوطات في مكتبتين. ووفْق بحث يغطّي الفترة الممتدّة بين 1921 و1970 أجراه المستشرق ريناتو تراباني، بلغ عدد المخطوطات التي شملها الاستقصاء 6798 مخطوطا. وهذا العدد سيتخطى الثمانية آلاف في حال أضفنا إليه مخطوطات الكاهن السرياني الحلبي بولس سباط (1887 - 1946) التي أودعها مكتبة الفاتيكان والبالغ عـددها 1325 مخطوطا.

مكتبتا الفاتيكان وأمبروزيانا

بشكل متفرّد تُعَدّ مكتبة الفاتيكان الأثرى من حيث احتضان المخطوط العربي. فهي تضمّ 2217 مخطوطا ليس من ضمنها المخطوطات المسيحية العربية. وهي ذخائر في منتهى الأهمية لا تزال خارج الحصر، لعلّ من أبرزها ما منحه الكردينال إغناطيوس جبرائيل تبوني بطريرك أنطاكية للسريان، بين العام 1935 و1937. تولّى جورجيو ليفي ديلاّ فيدا جرد المخطوطات العربية في مكتبة الفاتيكان، ونشر عقب ذلك فهرسين، ضمّ الأول 1152 مصنفا، وحوى الثاني 276 مصنفا.

وأمّا مكتبة أمبروزيانا في ميلانو، التي تأتي في المقام الثاني بعد مكتبة الفاتيكان من حيث احتضانها للمخطوط العربي، فهي تضمّ على رفوفها 2040 مخطوطا. هذا علاوة على مجموعة أخرى تبرّع بها المستعرب اللومباردي أوجينيو غريفيني (1878 - 1925). ومنذ سنة 1905 اشتغل غريفيني على ذخائر أمبروزيانا الجديدة حتّى رحيله. تخلّلتها سنوات عمل فيها حافظ مكتبة فؤاد الأوّل في القاهرة. وقد توقّف غريفيني بعد أن بلغ جرد أكثر من خمسمائة مخطوط. ليتولّى بعده السويدي أوسكار لوفرغين، بالتعاون مع ريناتو تراباني، إتمام فهرسة مخطوطات أمبروزيانا. نُشر الجزء الأول من فهرس أمبروزيانا بالإنجليزية بعنوان «فهرس المخطوطات العربية في مكتبة أمبروزيانا» سنة 1975، وقد ضمّ 356 مصنّفا من حصيلة المخطوطات القديمة والمتوسّطة، لتتوالى الأجزاء الأخرى. في حين ضمّ الجزء الثاني من الفهرس 830 مصنفا، ثمّ الجزء الثالث وقد ضمّ 465 مصنّفا، فضلا عن رابع هو بصدد الإنجاز.

جرد المخطوطات

ضمن العناية بالمخطوطات العربية في إيطاليا، كان أوّل الفهارس العلمية التي أُنجِزت فهرس المستشرق نللينو، وقد ضمّ 109 من المخطوطات الإسلامية. وقد بات هذا الفهرس -للأسف- خارج الاستعمال جرّاء الحريق الذي شبّ سنة 1904. غدا فهرس نللينو وثيقة إخبارية عن قسم هائل من المخطوطات التالفة. وضمن ما تبقّى أحصى ريناتو تراباني أربعة وخمسين مخطوطا عربيا.

كما تُعَدّ مكتبة أكاديمية لينشيه مستودعا لنفائس المخطوطات العربية في روما، حيث تَعُدّ قائمة المصنّفات العربية اثنين وثمانين مخطوطا من ضمنها تلك المتأتّية من مجموعات كورسيني وأكاديميكا وكايطاني، علاوة على خمسة وسبعين مخطوطا حديثة الاقتناء، تولى ريناتو تراباني جردها في بحث سنة 1967، ضمّ خمسة وسبعين ←

BIBLIOTECA UNIVERSITARIA DI BOLOGNA

عملا منها ثلاثة وستين مصنّفا يمنيا، وخمسة وردت من إتوري روسي (سنة 1938)، والثمانية الأخرى تمّ اقتناؤها من الدكتور شيزري أنسالدي، الذي عمل ضمن فريق البعثة الصحية في اليمن مطلع الأربعينيات من القرن الماضي.

كما تحصي الباحثة أريانّه دوتوني أربعة وثمانين مخطوطا في دار الكتب الوطنية في روما، وذلك ضمن بحث صادر لها سنة 2002. بالإضافة توجد العديد من المخطوطات العربية المتناثرة في إيطاليا، على غرار المائة مخطوط في المكتبة الوطنية في نابولي، التي تشمل من ضمنها أحد وعشرين مخطوطا مسيحيا مدوّنة بعربية مشوبة بالعامية اللبنانية والمصرية؛ أو كشأن المائتي مخطوط في جامعة الأورينتالي في نابولي؛ أو في مكتبات خاصّة أو في أديرة للرهبان.

وفي بحث ريناتو تراييني «ذخائر المخطوطات العربية في إيطاليا» الذي سبقت الإشارة إليه، نجد قائمة مطوّلة بالمكتبات الإيطالية وبأعداد المخطوطات فيها.

مخطوطات القرآن الكريم

تُصنَّف مخطوطات القرآن الكريم في مكتبة الفاتيكان ضمن النفائس النادرة، وتبلغ أعدادها مئة وأربع وأربعين مخطوطا متباينة الأحجام. في حين يبلغ عدد مخطوطات المصاحف المتواجدة في سائر مكتبات العاصمة روما إحدى وسبعين نسخة. ترد المخطوطات القرآنية من ستة مصادر: من بلاد المغرب، بلدان ما وراء الصحراء، المشرق العربي، الدولة العثمانية، فارس، الهند. وأهمّها تلك الواردة من الفضاء المغاربي. وما يميّز المخطوطات المغاربية أنّها فاخرة ومنسوخة بحِرَفية عالية، وهي مدوّنة في مجملها على الورق. كما أنّ هناك مجموعة مغاربية مدوّنة على الورق تعود إلى العام (1488م) وردت من جامع الزيتونة في تونس، وتتميز بأحجامها الكبيرة وجودتها.

المجموعة الثانية من المخطوطات تتكوّن من مصاحف قرآنية عثمانية، ويبلغ تعدادها في مكتبات روما مائة وسبعة وخمسين، وهي موزّعة على جملة من المكتبات. وهي تمثّل القسم الأكبر من حيث العدد. والخاصيّة العامّة التي تميّز هذه المجموعة من المصاحف أنّها تندرج ضمن مصاحف التلاوة الخاصّة والمتوسّطة الحجم. ثمّة مجموعة ثالثة من المصاحف واردة من مصادر مختلفة: اثنا عشر من بلاد المشرق، اثنا عشر من فارس، أربعة من بلدان ما وراء الصحراء، وهي مدوّنة بالخط المغربي. كما أنّ هناك ضمن المجموعة الفاتيكانية نسخة لنصّ قرآني مدوّن بالحرف العبري، تعود ملكيته إلى جوفاني بيكو ديلا ميراندولا ويعود تاريخه إلى مطلع القرن الخامس عشر.

كان الباحث كارلو أنزويني قد تناول مجمل المخطوطات القرآنية بالدراسة ضمن فهرس «المخطوطات القرآنية في مكتبة الفاتيكان وفي مكتبات روما»، نُشر سنة 2001. وقد اعتمد فيه منهجين في دراسة المخطوطات: خارجي يصف من خلاله العمل، وداخلي يتناول بمقتضاه مضمون المخطوط وإن كان جزءا أو مكتملا.

ع.ع.

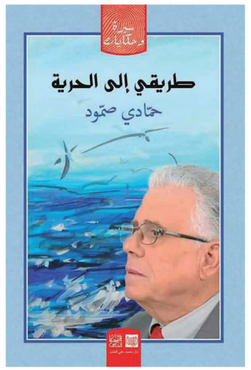

حمادي صمّود، الإنسان والحرية

تضطلع المقدّمة في كتاب حمادي صمود «طريقي إلى الحرية» بالدّور الذي حدّده فيليب لوجون للميثاق في نظريته حول أدب السّيرة الذاتية، ففيها يعرض الكاتب أمام القارئ خطة العمل لتكون التزاما أدبيا بين الطرفين، وهو ينبّهنا منذ السّطور الأولى إلى أنّ هذا الكتاب وإن كان يستجيبُ في الظاهر لشروط السّيرة الذّاتية ومقوّماتها فإنّه لم يُصنع ليكون القصُّ دائرا فيه على الذّات بل صُنع ليكون شهادة على مرحلة هامّة من تاريخ البلاد في ميدان التربية والتّعليم، وتحيّة إكبار واعتراف بالجميل لمن وجد الكاتب فيهم المثال والعون على الصّعوبات الجمّة في طريقه إلى الحرية، «وصُنع أولا وأخيرا اعترافا لدولة الاستقلال بالجهد العظيم الذي بذلته لتعليم الأجيال». ←

ولئن كان من المتعارف عليه لدى دارسي السيرة الذاتية أنّ الميثاق يُنتج آثاراً خاصّة على التلقّي فإنّ الإفلات من ضوابطه يدفع إلى ضروب من القراءة أكثر تحرّرا، فالقول بأنّ الكتاب شهادة على أعمال عظيمة في حقل التعليم واعتراف بجميل الرّواد لا يمثّل الاّ وجهة نظر واحدة وإن كانت وجهة نظر المؤلّف ذاته، والأصلُ في القراءة الحريّةُ وفي الأدب تعدّدُ الآفاق، لا سيّما أنّ الكاتب بذل جهدا كبيرا في المقدّمة لصرف أنظارنا عن الذّات كما لو كان يستبطن الاعتقاد السّائد بأنّ الحديث عنها أمر مُدان، فلطالما ردّد المنظّرون وجهة نظر البارونة «سطاف» في عرضها لقواعد فنّ العيش في 1889 واعتبارها الحديث عن الذّات دائما «موضوعا مزعجا ومملّا بالنسبة للآخرين»، وهذا الرأي قد يكون ذا جدوى في الحياة الاجتماعية، أمّا في أدب السّيرة فلا، إذ لا يتأسّس هذا الجنس الأدبي إلّا على استرجاع المؤلّف وقائع من حياته الشخصية، والسيرةُ في النظرية النّقدية «ليست نصّاً يقول فيه شخص ما حقيقة ذاته، بل هي نصٌّ قال فيه شخص واقعي ما قاله»، ولو أمسكنا بطرف الخيط هذا في كتاب حمّادي صمّود لقادنا إلى مناطق أخرى في النصّ يبدو من خلالها الكاتب أكثر من شاهد على العصر، وتنفتح لنا مسالك في القراءة تضفي على الأثر أبعادا أخرى، من هذه الأبعاد ما يتعلّق بالشكل الأدبي وبالسّارد في تردده بين الذات النصّية والشخص الواقعي.

يبدو تفكير الكاتب مُنصبّا في المقدّمة الأولى على ما ينبغي أن ينتبه إليه القارئ أثناء التّلقي، بينما نجده في المقدمة الثانية وعنوانها «في انتظار الآتي» يكتب تفاصيل لحظة مهمّة في تاريخ الكتاب هي لحظة الإرهاص الأولى، لحظة الشروع في النص، في هذا التمهيد المكثّف تبدو الكتابة مواجهة مع الزمن، فالعنوان يحيل على المستقبل، لكن انتظار الآتي لم يبدأ الآن في ساعة الكتابة، بل بدأ منذ زمن بعيد «عندما تكون رغبتك العنيفة كتابا قضيت عمرك في ترقّبه»، أما اللحظة الفاصلة ←

بين الرغبة والإنجاز فمحرّكها الخوف من الموت لأنّه يعادل الصّمت «وسكنك خوف من أن يَسْكُتَ الكتابُ فيكَ ويلفُّ الصّمتُ إذ يلفّكَ الموتُ حياةً لم تعصف بها لذةٌ كلذّة القولِ»، عندها يتساءل الكاتب عن «سرّ التمنع وبقاء رغبة الكتابة في الوهم». هذا النصّ الذي يُجمل فيه الكاتب بتركيز شديد دوافعه الذاتية لكتابة سيرته يمثّل جزءا من «الميثاق السيرذاتي» بل لعلّه أن يكون الجزءَ الأكثر أهمية، فإذا نظرت إليه بنيةً مغلقة وجدتَ أنّه مقدّمة مثالية وتقليدية للسيرة الذاتية من حيث هي تتويجٌ لتجربة ورغبةٌ في توثيق حياة زاخرة كتلك السّير التي يصفها «جورج ماي» بأنّها «محاولات يائسة للانتصار على الزمان والموت»، وما أشبه قول حمادي صمود «اللّغة باقية رغم الفناء وحانية في صمت متأهّب على ما استودعتها من حياة» بقول محمد شكري «قل كلمتك قبل أن تموت فستعرف حتما طريقها». لكنّك عندما تنظر إلى هذا النصّ في صلته بكاتبه، الشخص الواقعي الذي يضع اسمه وصورته على الغلاف سيبدو لك الأمر مختلفا جدا، فكتاب «طريقي إلى الحرية» إبداع أدبي فريد لرجل قضّى حياته كلّها في مجال الدرس الأكاديمي والبحوث اللغوية المعمّقة.

يقع ذلك في «موارد الضّفاء» الفصلِ الأوّل الذي خصّصه الكاتب لاستعراض مراحل من طفولته المبكّرة في قرية بحرية يعاني أهلها الضّنكَ وصعوبةَ العيش، ففي هذا الفصل تجاوز الكاتب شروط السيرة الضيقة وتقمّص روح الروائي ليكتب ثلاثة نصوص هي «في الإخبار عن موت «قبة» و«جُميِّل» غرقا»، «في الإخبار عن دهاء الرّايس فَرْجْ وإيقاعه برُيّاس في عقر دارهم»، و«في حادثة انقلاب «النّسْري» قبالة الطّنارة»، هذه النّصوص أقرب إلى القصص القصيرة منها إلى أيّ جنس آخر، ويمكن بلا تردّد نسبتها إلى «أدب البحر»، فالمؤلف لم يكتف فيها بسرد تفاصيل من حياته الشخصية إنّما صوّر حياة المجتمع في هذه القرية ومعاناة رجالها البحرَ طلبا للرزق، وهو ما جعله يخرج من غرفة السّيرة بواقعيتها الصارمة إلى ضرب من التخييل الروائي الحرّ، فيسرد أحداثا عاشها البحّارة في عرض البحر، ويستغرق في الوصف بأناقة ودقّة على غرار قوله «كان أحدُ البحّارة جالسًا في قِشّ المركب واضعًا يدَه على قفل السّفينة جهةَ الدفّة وعيناه تتأمّلان زرقةَ البحر الدّاكنةِ تحت السّفينة وذهنُه سارحٌ في مآل هذه السّرحةِ»، أو قوله «كانَ البَحْرُ أملسَ كأنّهُ صبُّ لجُينٍ أو ذَوْبُ رصاصٍ على أديمٍ مُستوٍ وأشعّة الشّمس تنعكسُ على كلّ بقعةٍ لزجةٍ أوْ مبلولةٍ لمعانا يتّقيه البحّارة بإمالةِ مِظلاّتِ رُؤوسِهِمْ إلى الأمام لتَجنّب وقعِه على أبْصارِهِمْ». لقد صيغت هذه النصوص لتصّور أثر البيئة في تكوين شخصية صاحب السيرة وتبرز الدور الكبير الذي قامت به أسرته الصغيرة في سبيل تعليمه ووضعه على أوّل طريق الحرية حتّى بلغ منتهاه، لكنّها كانت أيضا فرصة سانحة لحمّادي صمّود الناقد والمفكّر اللغوي للظهور في مظهر القصّاص والروائي متحرّرا من أسر النظريات وإكراهاتها، ولمّا كان الكتاب كلّه إبداعا أدبيا يخترق الأجناس والحدود ندرك ممّا ورد في الميثاق توق الكاتب إلى أن يتوّج حياته العلمية الصارمة والمنضبطة بفعل إبداعي يجسّد الحرية في أسمى معانيها، فقد قال في وصف الكتاب: «ولم يأتِ والرّغبةُ عنيفةٌ مُلحّةٌ آيَستكَ من كلّ شيءٍ سواه، وعلّقَتْ به طُموحَك الأكبرَ وأقنعتكَ أنّ حياتكَ فراغٌ ما لم يملأها وعبثٌ إن لم يُكسبها معنى، وتَراءى كلُّ ما أنجزْتَ في انتظارِ أنْ يَأتِي لا أصلَ لهُ في قرارةِ ذاتِك».

أما في «مسالك الحيرة» و«أبواب مشرعة» فقد امتزج الاعتراف الذاتي بالنقد الموضوعي والتقرير التاريخي، وحرص الكاتب على أن يتعالى على ذاته الضيّقة كثيرا ليكون ملاحظا وناقدا وموثّقا، فكان في بعض التفاصيل أشبه بالكاميرا التي تنقل لأوّل مرّة وفي حدود المسموح به أخلاقيا ما كان يدور في الغرف المغلقة ، كأن يصف ما حدث في اليوم الأوّل بالجامعة بعد أن انتدب للتدريس: «ما إن أنهى رئيس القسم العبارات المراسمية..ورحّب بالملتحقين بالقسم الجدد حتى تحوّلت القاعة إلى حلبة صراع تتسابق فيها أطراف في التشنيع على رئيس القسم والجرأة عليه بكلام سوقي وإشارات وحركات يخجل عتاة «البانْديّة» من إتيانها»، أو في اعترافه بأنّه ظلّ يعتقد أنّ المؤتمر الكبير الذي أسهم في تنظيمه مزيّتُه الكبرى «إخراج الاهتمام من الاختصاص إلى الجمهور العريض وتنبيه الأوساط الجامعية العربية بالنّقلة النوعية الهامّة التي حدثت في تونس في التعامل مع الظاهرة اللغوية»، ظلّ يعتقد ذلك إلى أن نبّهه أحد الأصدقاء إلى أنّ المؤتمر لم يكن خالصا للعلم، بل كان يهدف أيضا إلى إضعاف سلطة الأستاذ صالح القرمادي العلمية لأنّ السلطة السياسية تعتبره معارضا لا بدّ من أن تُخضد شوكتُه، ولا يخجل حمّادي صمّود في هذا السياق من الاعتراف بالسّذاجة قائلا عن القرمادي: «أرجو أن يبلغَه صوتي حيثُ هُو يرفع له اعتذاري عمّا ساهمتُ فيه وأنا خالي الذّهنِ منهُ»، وفي مواضع أخرى نجد ما يشبه أدب الرحلة لا سيما في الفقرة المطوّلة التي خصّصها الكاتب لسرد تفاصيل رحلة قام بها إلى اليابان مبعوثا من سلطة الإشراف لإعداد تقرير عن النهضة العلميّة في هذا البلد ورصد ما يمكن الإفادة منه لتطوير التجربة المحلية وهو ما لم يحدث مطلقا بعد أودع التقرير في أحد الأدراج ونُسي كأنْ لمْ يكن.

إنّ «طريقي إلى الحرية» ليس سيرة ذاتية فحسب وإن اكتملت فيه كلّ شروطها بل هو نصّ جامع يشمل صنوفا من القول مختلفة تجمع بين أدب الاعتراف والتخييل السردي، وهو في حياة الكاتب تتويج لمسيرة مُعلّم قطع على نفسه عهدا بالوفاء، ففي الفقرة التي وصف فيها فرحته يوم حصوله على منحة قومية لثلاث سنوات يقول: «هذا دينٌ لدولة الاستقلال لم أنسَهُ وحاولتُ عمري كلّه أن أسدّده من موقعي بما أوتيتُ من جهد وقدرة، لم تثنني عنه الإغراءاتُ الكثيرةُ التي جاءتْ من جهات شتّى». والذين أتيح لهم الجلوس إلى الأستاذ حمّادي صمّود في قاعة الدرس يدركون أكثر من غيرهم أثر هذا الالتزام في أسلوبه وشخصيته العلمية والاجتماعية، فقد استطاع في وقت قصير بعد عودته من باريس مطلع الثمانينات أن يصنع لنفسه مكانة خاصّة ومميّزة لدى الطلبة، وصار مثالا في سعة الاطلاع والصرامة العلمية وقوّة الشخصية، وهي صفات جعلته بمثابة الأنموذج والقدوة لأجيال متعاقبة من مدّرسي اللغة والأدب. والسّيرة الذاتية تفسّر الآن هذا الجانب الذي تمتاز به شخصية الكاتب الواقعية في ضوء علاقته الوثيقة بمجتمعه، لكنّها تتجاوز ذلك لطرح مفهوم جديد للحرية في ضوء علاقتها الوثيقة بالالتزام..

عامر بوعزة

SIMPAR
ISO9001
Since 1973

RESIDENCE LA BRISE
Jardins de Carthage

Vous invite à découvrir son nouveau projet **"LA BRISE"** sis aux jardins de Carthage. Résidence **de très HAUT STANDING** abritant 17 appartements **S+1, S+2 et S+3** ainsi que **2 Duplex et** un grand parking sous sol.

45 ans EXPERIENCE

Pour plus d'informations, nous contacter au :

simpar@planet.tn
www.simpar.tn
SIMPAR
29 921 011 / 29 921 009

قصّة قصيرة

زردة في نهج الدبّاغين

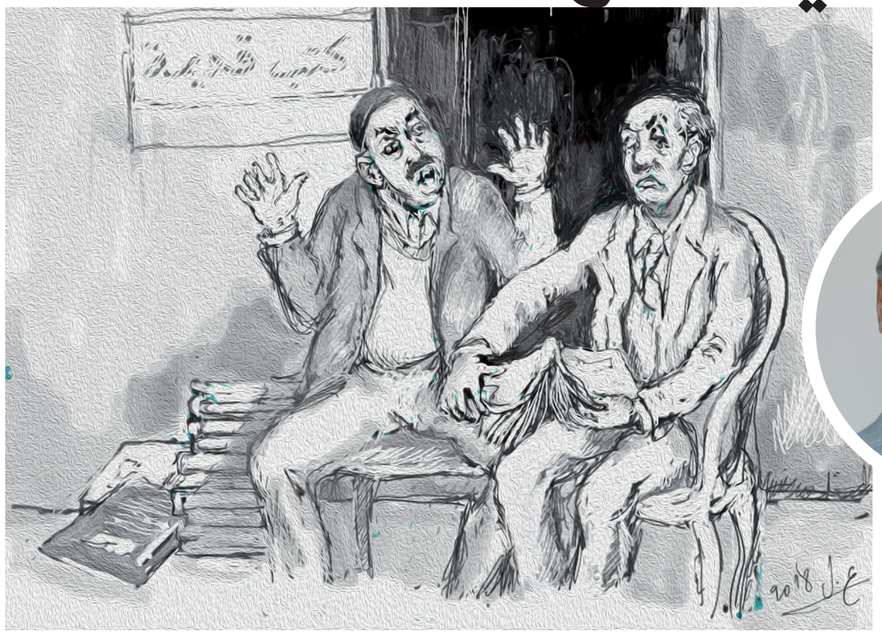

• بقلم علي اللواتي

أقبل «الأستاذ» رضوان من مدخل الزّقاق بسحنة مُتعبة وعينين تكنسان الأرض. نظر إليه يونس بائع الكتب الجالس أمام مخزنه متعجّبا . لم يعتد رؤيته هنا في مثل ذلك الوقت لمعرفته القديمة به وبتفاصيل كثيرة عن حياته. كانت السّاعة تشير إلى العاشرة صباحا والعادة أن يكون الآن بالكلّية مع طلبته يحاضرهم في التّاريخ الوسيط. بدا مُجْهَدًا، مُهْمَلَ اللّحية مَخْبِيَّ الظّهر ، يجرّ الخَطْوَ جرّا خلافا لعادته في المشي مستقيم القامة، شامخ الأنف، مُعتدّا بنفسه كعالمٍ اشتهر بمؤلّفاته في التّاريخ؛ زاد عجب يونس عندما اقترب الرّجل فاتّضحت هيئته المهملة بربطةِ عنق مُتَكَمِّشَة وياقةٍ حائلة اللّون وحذاءٍ يعلوه الغبار؛ وإذْ رآه يعقد قبضته في حركة لا إراديّة أيقنَ أنّ في الأمر خطبًا ما.

وصل «الأستاذ» أمام المخزن فنهض يونس محقّقا النّظر في وجهه قائلا : «مرحبًا أستاذ .. ما الذي أتى بك الآن على غير عادتك ؟». لم يجبه وانهار على مقعد بجواره وظلّ مطرقا مثبّتا نظره في الأرض. أضاف يونس : «هل أضرب الطّلبة عن الدّراسة اليوم ؟»؛ ولكن الرّجل ظلّ على صمته كأنّه لم يسمع وقد زاد شحوبه وسرت في وجهه تشنّجات تَشِي بانفعال داخلي حادّ.

شعر يونس بالشّفقة عليه لِمَا كان بينهما من مودّة نشأت أيّام كان «الأستاذ» يتردّد على المخزن بحثا عن مراجع تعينه على إعداد رسالة الدّكتوراه في بداية حياته الأكاديميّة. لم يكن لرضوان بن سعيد صديق غير يونس يخلع في صحبته قناع العالم فيتَبَسَّطُ معه في الحديث ويُصغي إلى فلسفته الشّعبيّة. كان يعدّ بائع الكتب ممّن خبروا الدّنيا وأهلها ويعترف له بحصافة الرّأي وسلامة الحكم على الأشياء. استمرّت العلاقة بينهما يغذّيها الولعُ بالمؤلّفات القديمة وتمضية أوقات الأنس في غرفة خلفيّة بالمخزن حيث يخوضان في أحاديث الجدّ والهزل ويفتح أحدهم قلبه للآخر ويحلو لهما استحضار ذكرياتهما القديمة؛ وقد ينجرّ الأستاذ أحيانا إلى لعب الورق مع صديقه عندما يضيق بحياته المهنيّة. كلّ ذلك رغم الفروق بينهما في المنبت والأفكار وتجارب الحياة إذ نشأ رضوان في أسرة ميسورة بإحدى قرى السّاحل ودرس التّاريخ وبات من كبار الأساتذة بالجامعة بينما وُلد يونس في واحة بالجنوب واضطرّه الفقر إلى الانقطاع عن دراسته الثّانويّة ليعمل في تجارة الكتب القديمة على الرّصيف. بعد سنوات من الكدّ والمثابرة نجح في امتلاك مخزنه الخاصّ مكتسبا في الأثناء ثقافة واسعة ما فتئت تثير إعجاب الأستاذ رغم اعتراضه كمفكّر ليبرالي على آراء صديقه المحافظة.

مرّت فترة صمت ظلّ يونس يبحث فيها عن عبارات مناسبة يواجه بها حالة صديقه الغريبة؛ فجأة نهض ودخل المخزن ثم عاد وبيده كتاب : «أخيرا عثرت لك على ترجمة » انهيار الغرب لـِ«أوسفالد شبنغلر.. لطالما تعبتَ في البحث عنها !». انتفض الأستاذ واقفا تهزّه رعدة غضب واختطف الكتاب وراح يمزّقه بعصبيّة:

• إلى جهنّم أنت وشبنغلر ومعكما التّاريخ وكلّ ما ينوء به العالم من سخافات.. إنسانيّة بلهاء لا تزال تؤمن بالكتب !..

قال يونس مذهولا : «لا مانع عندي أن تبعث بي و بالتّاريخ وبالعالم إلى الجحيم.. أمّا أن تمزّق كتابا فهو أمر جَلَل .. ما الذي دهاك ؟ !» دفن الأستاذ وجهه بين راحتيه وهمس مخاطبا نفسه: «ما من جحيم إلاّ على هذا الكوكب.. الحياة هاويّة سحيقة فمتى الارتطام بالقاع ؟ ! ثمّ رفع إلى يونس نظرة ممتلئة ألما وقال :

• لا تغضب، سوف أنقدك ثمن الكتاب .. لا أدري لماذا قادتني قدماي إلى هنا !

• أنا أعرف لماذا.. لأنّه ليس لك صديق غيري يحتمل حِدّة طبعك وعجرفتك، سوف آتيك الآن بقهوة وعليك أن تخبرني ما الذي أسقطك في هذا الجنون !

كان اليوم ربيعيًا يملأ بنوره أحد الأزقّة الفرعيّة لنهج الدّبّاغين الذي يربط ببناياته ذات الطّراز الكولونيالي بين مدينة تونس العتيقة والحيّ الأوروبيّ؛ هناك حيث الأرصفة مفروشة بالمطبوعات القديمة وعلى المشتري أن يبحث مقلّبا في أكداسها عن ضالّته؛ هناك تنتهي الكتب المنهوبة من رفوف المكتبات العموميّة أو تلك الآتية من أرصدة الأسر العريقة أو من تصفية الكُتُبِيّات المفلسة.. كُتُبٌ تُباعُ بالجملة أو تُقَوَّمُ بوزنها من الورق فتتجاور على الرّصيف «أزهار الشّرّ لبودلير» و«رسالة الغفران للمعرّي» و «الانطباعيون الفرنسيّون» و «ألذّ المعجّنات الإيطاليّة» و«كيف تصبح ثريًا» مع دوريات الـ «ريدر ديجست» ومجلاّت الموضة التي جعّدتها الرّطوبة وذهبت الأيّام بألوانها.

هدأ روع الأستاذ قليلا بعد أن جلب له يونس قهوة حارّة شربها في جرعتين أو ثلاث مع بضع سجائر دخّنها بلهفة وما لبث أن عاد إلى التّحديق في الأرض غير آبه لما يدور من حوله. بينما انشغل بال يونس بالتّساؤل عمّا يكون قد أصابه ..

جاء شابّ يسأل عن مراجع حول «الفتنة الباشيّة» قال يونس وهو يشير إلى الأستاذ لعلّه يفلح في حلّ عقدة لسانه : «هذا العالم الجليل أفضل من ينصحك حول الموضوع». انطلق الأستاذ في قهقهة هزّت كامل جسده ثم عاوده تجهّمه فجأة وقال : «مالي وللفتنة الباشيّة والحمّى الاندفاقيّة ؟!سوف أمضي وأتركك مع هذه الأشكال المتطفّلة على الفكر !». التفت الشّاب إلى يونس وقال بابتسامة ساخرة :

• أيّ مجنون هذا؟ !.. عالم جليل، قلت ؟ ! ..هل رأيت يوما عالما يهين النّاس بهذه الصّفاقة ؟ أعرفه جيّدا، إنّه الأستاذ «منهجيّة» .. لا ينفكّ يردّد تلك الكلمة حتّى التصقت به .. لا فائدة في ذكر ما يدور حوله من أحاديث في الكليّة.. أحمد الله أنّني لست من طلبته !

انتهر يونس الشّاب مؤنّبا إيّاه فانصرف ساخطًا، مغمغما بشتائم مقذعة بينما كانت نظرات الأستاذ الملتهبة تلاحقه إلى أن غاب في آخر الزّقاق.

عندما ألقى رضوان إلى المحلّ آخر مرّة منذ نحو شهرين بدا منقّدا حيويّةً وتفاؤلاً في انتظار مناقشة زوجته الوشيكة لرسالة دكتوراه حول القرصنة في البحر الأبيض المتوسّط خلال القرنين السّابع عشر والثّامن عشر. كانت أنيسة إحدى طالباته وقد اقترن بها منذ عشر سنوات رغم فارق السّنّ بينهما ولم يرزق منها بالولد. أثار ذلك الزّواج آنذاك شتّى التّساؤلات عمّا تغنمه فتاة جميلة في الخامسة والعشرين اشتهرت بمرحها وإقبالها على الحياة من الاقتران برجل جاوز الخمسين أمضى حياته في خلوات البحث وحلبات المناظرة والجدال؟.. مضى على ذلك عشر سنوات اختفى خلالها شيب شعر رأس الأستاذ وشاربه تحت الأصباغ وأمسى هندامه يجاري أناقة العصر؛ وفي الأثناء واصلت الزّوجة دراستها العليا بقسم التّاريخ إلى أن أنهت إعداد أطروحتها بإشراف أحد طلبة زوجها القدامى.

لم يقاوم يونس رغبته في سؤال كان يودّ طرحه على صاحبه بمجرّد أن رآه لو لم تفاجِئْه حالتُه المضطربة :

• هل ناقشت أنيسة أطروحتها أخيرا ؟

• نعم .. ونالت الشّهادة بدرجة مشرّف جدًا مع تهاني أعضاء اللّجنة واعتبار الرّسالة حدثا علميًا تفخر به الجامعة، قال الأستاذ ذلك بنبرة رتيبة مثل مذيع يسرد خبرا لا إثارة فيه وأردف ذلك بقهقهة مسرحيّة.

لم يفهم يونس سلوك صاحبه ولكنّه ضغط على يده بحماس مهنّئا : «يالها من فرحة ! كان عليك أن تخبرني بذلك في حينه». غير أنّ الأستاذ سحب يده بعصبيّة وقال في ما يشبه الفحيح :

• «الحدث السّعيد لم يكن سوى فضيحة ما بعدها فضيحة ! شاع في الجامعة أنّني صاحب موضوع الأطروحة وكاتبها ..

• دعك من الأراجيف .. لعلّك لم تفعل سوى مساعدة زوجتك على التّحرير ..أنت رجل نزيه و قديما كان في النّاس الحسد و... لا إله إلاّ الله .... لست ممّن ينحدرون إلى .... قاطعه الأستاذ مبتسما بسخرية :

• بلى لقد انحدرتُ !..أنا اخترت موضوع الأطروحة وأنا حرّرتها من الألف إلى الياء بينما كانت تعنى بزينتها وسفراتها السّياحيّة على نفقتي..

ظلّ يونس مذهولا تتوزّعه مشاعر الدّهشة والغضب والشّفقة معا. وأخيرا ربّت على ظهر صاحبه بلطف وقال :»لا بأس .. أنت تبالغ في القسوة على نفسك.. لعلّك تشكو من أعراض احتقار الذّات .. سبحان الله .. أنت في حاجة إلى طبيب». أجابه الأستاذ متبرّما :» أنا فعلا أحتقر ذاتي ولا دخل لأيّ مرض في ذلك .. من حسن حظّك أنّك رجل مؤمن تواجه ما يحلّ بك من مصائب بالحوقلة والتّهليل، أمّا أنا فإنّي أشهد انهياري دون أمل في العون من أحد.. أتصدّق أنّني لم أشعر البتّة وحتّى الأسبوع الفارط بتبكيت الضّمير على ما اقترفته خيانةً للعلم ؟ !.. لم أنشغل آنذاك بما شاع عن ضلوعي في عمليّة غشّ، كنت معنيّا قبل كلّ شيء بحالة زوجتي العزيزة.. عندما رأيتها تبكي خوفا من العواقب هدّأتُ من روعها وطمأنتُها بأنّ لا أحد يستطيع إقامةَ الحجّة على ما اقترفناه.. ها أنت ذا←

ترى رضوان بن سعيد كما هو على حقيقته .. لطالما آمنتُ برسالة العلم ويشرف الانتساب إليه حتّى اليوم الذي دخلت فيه أنيسة قبل عشر سنوات إلى مدرّج الكليّة .. كانت تلبس تنّورة قصيرة وتبعث ببروق قاتلة من عينيها الخضراوين.. منذ سنة الدّراسة الأولى كانت تطيل الحديث معي وتلاطفني ودعتني مرّةً إلى احتساء القهوة في فندق بالضّاحية الشّماليّة .. حاولت مقاومة سحرها .. كان الكثيرون من زملائها الطّلبة يحومون حولها ومن بينهم شابّ هام بها هياما وبلغ تعلّقه بها أن اعتدى على طالب آخر كان ينافسه في حبّها حتّى كاد يقتله.. دست على النّزاهة ونظرت إلى الجاني كغريم ينبغي كسره فكنت أوّل المنادين في مجلس التّأديب بطرده من الكليّة وقد تمّ ذلك فعلا رغم تنازل الضّحيّة عن الشّكوى.. فعلتُ ذلك بدافع غيرتي وحقدي وليس ذودا عن الأخلاق الحميدة ..كانت تلك بداية السّقوط ومرّت سنون طوال على الحادثة ولم أشعر يوما بالقرف من فعلتي إلى أن..».

علا وجه يونس فجأة تعبير عن الاستهجان وقاطعه حانقا :

• إذا كنت لا تشعر بتأنيب الضّمير فما الذي دفعك إلى هذه الحالة اليائسة ؟ !

•أرجوك .. مجرّد الحديث في ذلك يؤذيني فلا تعد إلى سؤالي مرّة أخرى ..أنا على يقين أنّك الآن تحتقرني .. هذا أفضل، لعلّه يخفّف عنّي بعض ما أنوء به .. قد أُصبحُ بذلك رجلا حرّا .. رجلا تافها يمتزج بالسّوقة ويدمن المخدّرات ويتقذّر في الكلام .. العوامّ هم، قطعا، أكثر النّاس حريّة لأنّ أصفاد العلم المزيّف لا تكبّلهم.. لماذا لا تجلب لي شيشة جيراك قويّة لأبدأ حياتي الجديدة بعيدا عن ابن خلدون وبروديل وعبد الله العروي ؟!

نهض يونس من مقعده مغتاظا وقال : «لن أتركك تعبث بنفسك .. أنت مريض ولا بدّ أن أُعْلِمَ أنيسة بهذا الهذاء !» أخذ هاتفه الخلوي ومضى يركّب رقما على لوح المفاتيح. ولكن رضوان اختطف الهاتف منه وصاح : «أرجوك لا تعقّد الوضع ولا تعمّق مأساتي.. حسبتك صديقا فلجأت إليك .. أنا لا أثق بأحد سواك»؛ ثم أخذ جسده يرتعد وفجأة قبض على أسفل عنقه كأنّه يحسّ بالاختناق فاحتضنه يونس فزعا وأجلسه على المقعد قائلا :

• اطمئن لن أكلّم أحدا .. يا للكارثة .. لا أفهم شيئا ممّا يحدث لك ولا أدري ما الذي أتى بك وأنت على هذه الحال ؟ !

• طيّب، سأخبرك ..جئتُ لأعرض عليك مكتبتي الخاصة ؟!

• كيف ؟ ! .. تبيعني مكتبتك ؟ !.. أنت رجل في سعة من أمرك فما يلجئك إلى ذلك ؟ ! .. ثلاثة آلاف كتاب من أنفس المصنّفات !.. كيف تتخلّى عن كنز قضيت كلّ عمرك في جمعه ؟ ! على أيّ حال، أنا لا أملك ما يكفي من المال لشرائها ..

• من حدّثك عن البيع والشّراء أيّها الغبيّ ؟.. سوف أهبُها لك وسأُمضي وثيقة قانونيّة و...

• هُراء .. وثيقتك قابلة للطّعن لأنّ الواهب مريض عافاك الله !

• طيّب .. إذن سوف أحرق الكتب وستندم لأنّك كسرت خاطر من اصطفاك صديقا من دون كلّ الأوباش الذين صادفهم في حياته البائسة !

• إن كنت مصمّما على التّخلّص من مكتبتك فلماذا لا تهبها لإحدى المؤسسات الأكاديميّة ؟ !

• طزّ في المؤسّسات الأكاديميّة.. أن تدخل الكتب في الدورة الاقتصاديّة بيعا وشراء أفضل من أن تواصل موتها على الرّفوف !

• لم لا تحتفظ بها لأنيسة .. ألا تفيدها وهي مقبلة على حياة أكاديميّة واعدة؟ !

صمت الأستاذ برهة وهو يغالب انفعالا عنيفا ثمّ قال والعبرة تخنقه: « لقد تركت أنيسة البيت منذ أسبوعين وبلغني أنّها تُعِدُّ لِرفع قضيّة في الطّلاق.. يا لي من أقرن مغفّل، أهديتها الدكتوراه على طبق من فضّة ثمّ سعيت لكي أحصل لها على رتبة أستاذ مساعد .. فَبِمَ كافأتني ؟ ! .. إنّها تعتزم السّفر في الموسم الجامعيّ القادم إلى أحد بلدان الخليج للتّدريس هناك صحبة عشيقها المشرف على أطروحتها.. نهض الأستاذ من مقعده وقد زاد وجهه شحوبا بينما بدت عيناه الجامدتان لا تريان شيئا. خاطب يونس بصوت واهن دون أن يلتفت إليه :

• أنا ذاهب الآن .. إن كنت تحفظ لي بعض الودّ فلا تعلم أحدا .. أفهمت .. لا أحد مطلقا !..

• لن تذهب وحدك .. سوف أقفل المحلّ وأصحبك إلى البيت.

• أنت تضجرني .. أعدك بأنّي لن أنتحر ..أنا مقبل على حياة جديدة .. معي ما يكفي من المال لأنعم بحياة شعبيّة بلهاء أرتكب فيها كلّ الحماقات التي حرمني منها العلم المزيّف..سوف أنسى أنيسة التي حصلت منّي على بغيتها ثمّ رمت بي كما ترمي بحفّاظة قذرة .. كيف لم أتفطّن مبكّرا لِطُموحها المَرَضيّ وحبّها للشّهرة.. كيف استطاعت إخفاء عواطفها المَيّتة وقلبها الجليدي عنّي تحت قشرة النّعومة والإغراء ؟ !..ذاك هو العلم أو ما بقي منه في أيّامنا هذه : مطيّة يركبها المنحرفون للحصول على المراتب الجامعيّة !.. سوف أندمج بالسّواد الجاهل، بالدّهماء الذين لا تتجاوز أحلامهم اللّبلابي والشّيشة، هناك حيث لا يتهامس النّاس عنّي عند مروري في الطّريق لآخر مرّة أعرض عليك كتبي .. سوف تكسب منها الكثير حتّى إن بعتها بأبخس الأثمان..

نهض فجأة تهزّه نوبة عصبيّة وصرخ :»فليعلم الحميع أنّ الأستاذ رضوان «منهجيّة» يقدّم العلم قربانا على مذبح الحياة الحقيقيّة» ثم التفت إلى يونس وأضاف :

• ولكنك أبعد عن أن تدرك المعنى العميق لهذا الفعل .. غدا سأعود ومعي شاهد عدل ..لإتمام إجراءات الهِبَة!

• لن آخذ منك شيئا ويقيني أنّ الأمر سينتهي بك إلى مستشفى الرّازي !

• كما تريد .. الجنون نعمة تكشف للخاصّة أسرارًا عجيبة يخفيها الغباء عن العوامّ الأسوياء..

انصرف الأستاذ متّجها إلى مدخل الزّقاق بخطوة خفيفة كأنّما نشط جسمه من عقال وبدا وجهه منفرج الأسارير مشرقا بابتسامة غامضة. ظلّ يونس يتابعه بنظرات حزينة قلقة ولم يلبث أن بلغه صوت صديقه وهو يهزج بأغنية «عايروني بيك يا حمّة»...

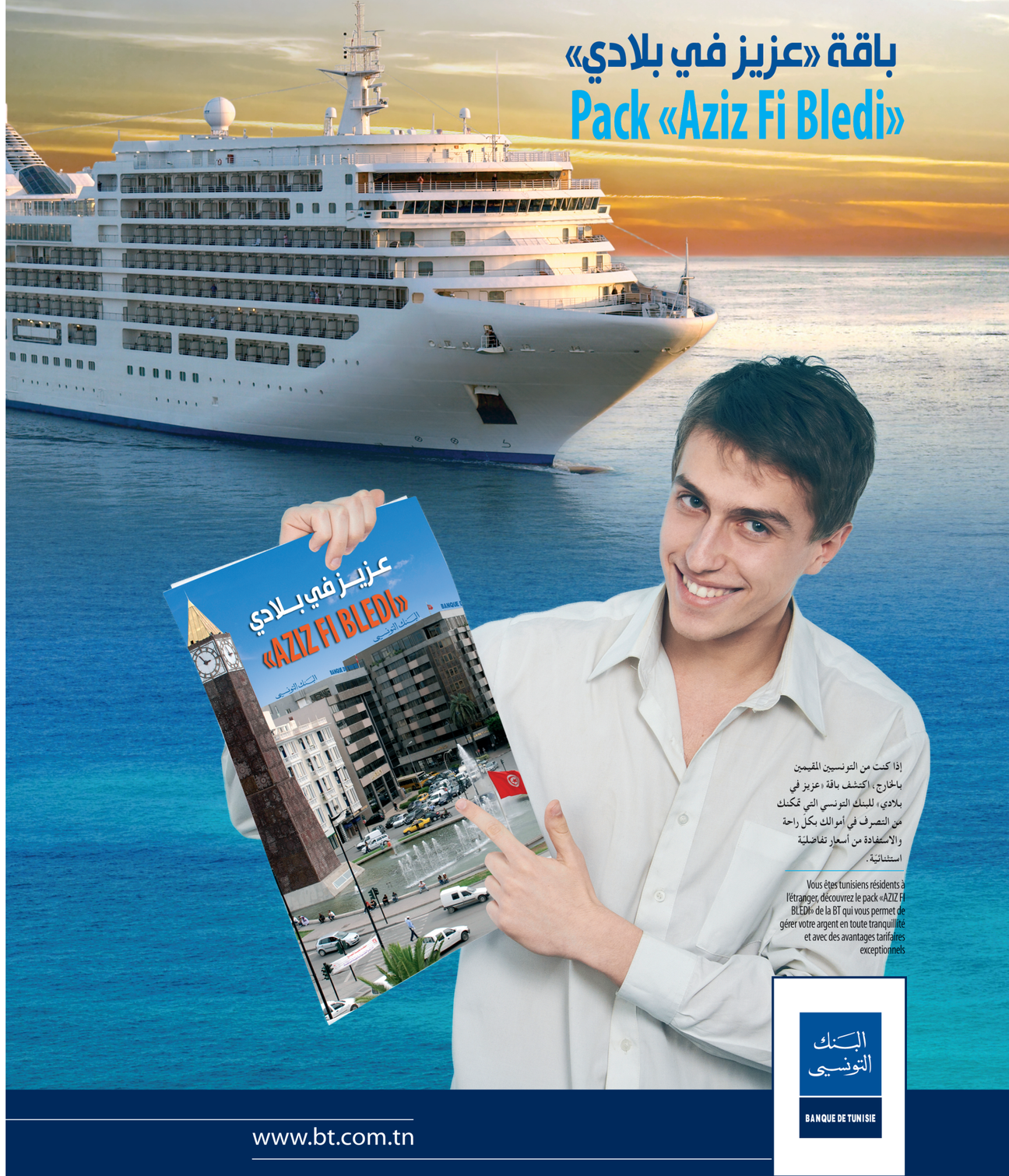

بينما كان يونس يستعدّ لغلق المخزن قبيل الغروب، أقبلت عليه أنيسة ذابلة الوجه وسألته إن كان بوراوي قد زاره في الفترة الأخيرة. كانت تلك مفاجأة محرجة وحار بِمَ يجيب وقد وعد صديقه أن لا يخبر أحدا بما دار بينهما؛ غير أنّه استحيا أن يَكْذِبَهَا القول، خصوصا أنّها كانت تكّن له مودّة واحتراما وتدعوه بـ«عمّ يونس» فما عسى يفعل لو ألحّت في سؤاله؟ !. قرّر أن يجيبها باقتضاب في حدود أسئلتها ودون التّوسّع في تفاصيل ما أخبره به رضوان. أعلمها بزيارته ولمّح إلى حالته السّيئة مشيرا إلى حاجته الماسّة إلى الرّاحة. باغتته قائلة :» هل حدّثك عن وضعنا في البيت ! لم يجب يونس وتظاهر بعدم فهم السّؤال. أضافت :

• أقصد هل حدّثك في موضوع افتراقنا ؟ !

• بلى.. قال إنّك غادرت البيت وتعتزمين رفع دعوى في الطّلاق..

انغلقت ملامحها في تعبير قاسٍ وقالت :»فعلا لقد فعلت .. ضقت ذرعا بظنونه وغيرته المرضيّة.. أصبح يعترض على سفري إلى الخارج للمشاركة في النّدوات العلمية ..وكم مرّة أغلظ لي في القول وما فتئ يذكّرني بأفضاله عليّ مدّعيا أنّني مدينة له بدرجتي العلميّة .. أنا الآن أعاني انهيارا عصبيّا إنّي أجفّ، أتخشّب ولم أجاوز الخامسة والثّلاثين من عمري!». نصحها يونس بالتّريث قبل الإقدام على أمر لا تحمد عقباه مشيرا إلى حالة زوجها اليائسة؛ واقترح أن يجتمع بهما للبحث عن حلّ ما ولكن ملامحها انقبضت وقالت بنبرة صارمة:

• أرجوك عمّ يونس، لم آتكَ لتبحث لي عن حلّ .. لقد حزمت أمري ولا رجوع عن قراري .. الآن معي درجة علميّة تمكّنني من العمل في أي بلاد أخرى؛ سوف أهاجر إلى أيّ مكان أرمّم فيه وضعي وأستنشق هواء نقيّا افتقدته منذ سنوات.. وقد أجدّد حياتي مع رجل آخر لا يرهقني بجفاف عقله ورهبانيته الفكريّة.. دعنا الآن من ذلك .. أريد أن آخذ أغراضا شخصيّة وبعض الوثائق التي تركتها سهوا في البيت ولكنّ صاحبك غيّر القفل وأرجوك أن تتدخّل لديه لأسترجع أشيائي.

ظلّ يونس صامتا برهة بينما كانت شتّى الخواطر المفزعة تتزاحم في رأسه؛ لا يدري لِمَ أحسّ بأنّ جانبا من حياته ينهار من حوله في سحابة من الغبار الممتزج بالرّائحة المنبعثة من الكتب البالية.كان يحبّ صديقه ويستأنس به وهاله ما آل إليه من يأس لعلّه ذهب بعقله؛ أيقن أنّ مشكلته مع أنيسة أشبه بورم انفجر وسال صديده ولن تفيد حكمته ومودّته لهما في شفائه. رفع إليها نظرة يائسة وقال : « أنيسة يا ابنتي .. سوف أحاول وأرجو من الله التّوفيق..».

حاول عميد الكليّة جاهدا إقناع الأستاذ رضوان بن سعيد بالعدول عن قرار الاستقالة من قسم التّاريخ ولكن الرّجل ظلّ جامدا أمامه مردّدا بصورة آليّة: «لا بدّ من ذلك، لا بدّ من ذلك». قال العميد : أفهم أنّك تضايقت ممّا يدور من شائعات حول مساعدتك لزوجتك في إعداد أطروحتها، ولكنّك تعلم أنّها مجرّد أقاويل وتعلم أيضا أنّه لا تكاد تسلم أطروحة من شائعات .. الأمر بسيط وأنصحك أن تخرج في إجازة لبعض الوقت .. أنت في حاجة إلى الرّاحة .» سحب الأستاذ أوراقا من محفظته ونشرها بحركة عصبيّة فوق مكتب العميد قائلا :

«سيّدي أمامك رجل لا يستحقّ مرتبته الأكاديميّة .. ليس في الأمر أقاويل وإنّما هي الحقيقة .. لقدّ اخترتُ إشكالية الأطروحة وقمت بتحرير النّصّ من أوّله إلى آخره وهذه حجّة الإثبات أمامك.. رسائل إليكترونيّة تبادلتها مع المسمّاة أنيسة بن صالح بينما كانت تنعم بأوقات ممتعة مع عشيقها في الخارج .. عليك أن تقرأها لأنّها تتضمّن فقرات، بل فصولا كاملة كنت أعرضها عليها ليهنأ بالها.. جريمة غشّ مستوفاة الأركان..لا يزال لدي بعض الإحساس بمسؤوليتي إزاء العلم !».

مرّ وقت على العميد وهو يطالع الوثائق وأخيرا قال مفتعلا الهدوء:

• أرجوك، أستاذ رضوان، أنت زميل عزيز وتلك تهمة خطيرة لن يترتّب عنها فصلكما من الجامعة فقط بل قد تودعان السّجن .. أن تسيء لنفسك ولزوجتك التي سوف تفقد درجتها العلميّة .. نصيحتي لك أن تنسى الأمر .. لن يقتنع النّاس بغيرتك على العلم .. سيقولون إنّك فقدت صوابك وفعلت ما فعلت بدافع الغيرة والحقد.. أرجو أن ندفن السّر هنا.. هذا في صالحك !

• ولكنّه ليس في صالح الحقيقة .. صدّقني أنّ الغيرة ليس الدّافع الوحيد .. أنا فعلا قَرِفٌ من نفسي ..أعرف تبعات ذلك عليّ ولكنّه الثّمن الذي ينبغي أن أدفعه لقاء خيانتي.. عليك أن تقوم بالإجراءات اللاّزمة لوضع حدّ لهذه المهزلة؛ وإذا كنت تخشى على سمعة الكلّيّة فأنا أؤكّد لك إنّ موقفا حازما منك سوف ينقذ وحده شرف هذه المؤسّسة!.. إن لم تفعل فسوف أرفع الأمر إلى جهات أخرى ..

جمع العميد الوثائق المنشورة أمامه وحفظها في ملفّ كتب عليه شيئا ثم دسّه في درج أغلقه بمفتاح. نظر إلى رضوان وقال بأسى : «إنّ كنت تعتقد فعلا أنّك تخدم الحقيقة فأنت سقراط هذا العصر !».

نهض الأستاذ من مكانه وانحنى يصافح العميد هامسا بسخريّة مرّة: «صدقت سيّدي العميد فلطالما عانى سقراط من زوجته مثلي .. يقال إنّها لم تكن تتورّع عن ضربه !»

بعد أيّام قدم يونس إلى نهج الدّباغين متأخّرا وفوجئ بغليان غير معتاد ورأى أعدادا من النّاس تتعالى ضوضاؤهم وهم يتصفّحون كتبًا مكوّمة في غير نظام على جانبيّ الرّصيف أمام الباعة. اقترب من أحدهم وتناول كتابا ونظر إلى الصّفحة الأولى فهاله أنّها تحمل طابعا يعرفه جيّدا :»مكتبة الأستاذ رضوان بن سعيد». بادره البائع قائلا : « يا لسوء حظّك يا عمّ يونس، حُرِمْتَ اليوم من زَرْدَةِ صاحبك الأستاذ.. لقد أغرقنا جميعا بإحسانه ووزّع علينا كلّ ما يملك من كتب.. شاحنة بأكملها أفرغها على الرّصيف!».

رمى يونس بالكتاب أرضا وابتعد صامتا محاولا كبت انفعاله وعندما وصل إلى مدخل الزّقاق المؤدّي إلى مخزنه، لمح رضوان جالسا أمام بابه المقفل وهو يدخّن شيشة ويحتسي القهوة. كان يرتدي سروال «دجين» ومريول بحريّة ويرفع عقيرته بأغنية شعبيّة. وعندما رأى يونس أشار إليه بحركة مرحِّبة من يده وعلى شفتيه ابتسامة بلهاء. ولكن يونس توقّف عن السّير ثم عاد أدراجه منفطر القلب دامع العين .. لم يكن قادرا على مواجهة صديقه وهو على تلك الحال.. لقد انتحر على طريقته الخاصّة.. وفكّر أنّ عليه الآن الاتّصال بطبيب يأمر بأخذ الرّجل إلى مستشفى الرّازي.

ع.ل

ATL LEASING

ATL Leasing, vous offre la possibilité de louer les biens dont vous avez besoin pour votre activité pendant une période pouvant atteindre 84 mois.
En fin de période vous en devenez propriétaire.

ATL
LEASING
Plus qu’un leasing...

الفيلم الوثائقي في تونس... بين التهميش والتنميط

يعدّ الفيلم الوثائقي أحد أهم الأجناس السينمائية والتلفزيونيّة التي لا تعتمد على القصة أو الخيال، بل تبحث عن الحقائق والأدلّة التي طمست معالمها أو محيت آثارها، من خلال معالجة إبداعيّة خلاّقة للواقع ترتكز أساسا على تقديم حجج وبراهين عقلانية ومعرفية لموضوع أو قضية محدّدة بطريقة موضوعية ومبسّطة. ورغم عديد الإشراقات والنجاحات فإنّ صناعة الفيلم الوثائقي في تونس وفي العالم العربي تبقى متعثّرة ورهينة ظروف تمويلية وترويجية جدّ صعبة.

خلط في المفاهيم

لابدّ من الإشارة في البداية إلى إشكالية الخلط في المفاهيم بين الفيلم الوثائقي والفيلم التسجيلي والريبورتاج. فهناك من يعتبر أنّ الفيلم الوثائقي يستند إلى فكرة وموقف ورؤية تُتّخذ مادّتها السينمائية من واقع الحياة لتقع إعادة صياغتها وتعديلها بشكل فنّي وإبداعي قريب من الحقيقة، وهناك من يرى أنّ الفيلم التسجيلي هو الوحيد الكفيل بسرد الواقع دون إضافة أو تجميل من أجل الأرشفة والتوثيق، فيما يفضّل البعض الآخر عدم التعامل مع هذا التداخل بين المصطلحين في جانبه الإشكالي وبهذا لا يكون ثمّة فرق يذكر بين المفهومين ممّا يسمح بإمكانية إطلاق المصطلحين على مدلول واحد واعتماد تسمية «الفيلم التسجيلي الوثائقي» لإطلاقها على الأفلام غير الروائية التي تصوّر الواقع وتفسّر الحقائق المادية بطريقة احترافية. أمّا الريبورتاج، الذي له ضوابط ومعايير مختلفة، فهدفه الوحيد هو نشر الحقائق والمعلومات الجديدة وتبيانها دون الاحتكام إلى رؤية وإلى صياغة فنيّة وجمالية للواقع.

إنتاج هزيل كمّا ومتواضع نوعا

رغم القيمة الثقافية والإعلامية والتعليمية للفيلم الوثائقي، تعاني هذه الصناعة السينمائية في تونس وفي العالم العربي عموما من صعوبات وعقبات عديدة ترتبط أساسا بمشاكل الإنتاج←

Jawhara FM
إذاعة وطنية
90.7 | 103.2 | 98.6
TUNIS
NORD OUEST
ZAGHOUAN
CAP BON
GABES
SFAX
Bizerte
TUNIS
Nabeul
Zaghouan
Sousse
Monastir
Kairouan
Mahdia
Sfax
Gabes
FM
Jawhara
الدنيا و ما فيها

والدّعم، بالإضافة إلى غياب ثقافة ترويجية تؤسّس لأفق معرفي عصري يدفع المتفرّج إلى مشاهدة هذا اللّون من الأفلام.

وتشير الأرقام إلى أنّه لا وجود لصناعة أفلام وثائقية في تونس، إذ بلغ عدد الأشرطة الوثائقية الطويلة التي تتجاوز مدّة عرضها 60 دقيقة - حسب إحصاءات المركز الوطني للسينما والصورة - 61 شريطا من مجموع 234 شريطا روائيّا ووثائقيّا طويلا تمّ إنتاجها بعد الاستقلال (1956 - 2016)، أي بمعدّل فيلم وثائقي واحد في السنة، علما وأنّ الإنتاج السينمائي الوطني بلغ ذروته بعد الثّورة ليبلغ 86 شريطا بين وثائقيّ وروائيّ.

ويعود سبب ندرة الأفلام الوثائقية أساسا إلى عزوف المنتجين التونسيين عن إنتاج هذه النوعية من الأفلام نتيجة ضعف عائداتها المالية، على الرغم من أنّ تكلفة إنتاج الأفلام الوثائقية أقلّ نسبيًا من تكلفة الأفلام الروائية، بالإضافة إلى كونها لا تتوافق مع ميولات وتطلعات المشاهد التونسي الذي تستهويه أكثر الأفلام الروائية والدراما، ممّا ساهم، إلى جانب عوامل أخرى، في تصحّر هذه السوق السينمائية وتخلّي شركات التوزيع ودور العرض السينمائي عن هذه النوعية من الأفلام، علاوة على تكرار المواضيع التي أشبعت بحثا وحصرها في أعمال تسجيليّة عن الفلكلور والمعالم الأثرية والشخصيات التاريخية في ظلّ غياب تامّ لرؤية إخراجية متجدّدة تعتمد على الحرفية الفنية واستخدام التقنيات الرقمية الحديثة.

الوثائقي بين مطرقة التّهميش وسندان التّنميط

لا تقتصر هذه الوضعية الصعبة للفيلم الوثائقي فقط على الأسباب التي أتينا على ذكرها آنفاً، بل الأمر يتعدّى ذلك في تصوّرنا، حيث أنّ هذه النوعية من الأفلام لا تحظى إلاّ بالقليل من الاهتمام في مسيرة بعض السينمائيين التونسيين، باعتبارها محطّة عبور لبعض المخرجين الجدد في انتظار فرصة إنجاز شريط روائي طويل يجعلون منه اللّون السينمائي الرئيسي في حياتهم المهنية بهدف اعتلاء منصّة التّتويج وحصد الجوائز في أهمّ التظاهرات السينمائية المحلية والدولية.

وإذا كانت صناعة الفيلم الوثائقي في تونس متعثّرة وغير قادرة على الصمود والتطوّر لتصبح مكوّنا أساسيا من مكوّنات عاداتنا الفنية والثقافية، فلأنّ الأمر يعود أيضا إلى ضعف التكوين الأكاديمي في هذا الاختصاص، هذا إن وجد أصلا، وإلى غياب الدورات التدريبية والورشات الدراسية التي من شأنها أن تساعد الجيل الحالي من المخرجين الشبّان على تنمية مهاراتهم وترتقى بهذا النوع السينمائي المهمّش إلى مرتبة أفضل.

ويضاف إلى كلّ هذه العوامل السلبية تفشّي ظاهرة «التّنميط والقولبة» للفيلم الوثائقي نتيجة تشبثّ أغلب السينمائيين التونسين بالموروث الحضاري والعودة إلى الماضي لتخليد ذكريات والاحتفاء بشخصيات وطنيّة بارزة أو للتعريف بالتقاليد والطّقوس الاحتفالية لبعض الجهات الداخلية... ويمكن أن نعتبر هذا التوجّه نوعا من أنواع التحصين الثقافي والدفاع عن الهويّة الوطنية، لكن لا يمكن، بأيّ حال من الأحوال، أن يقتصر دور الفيلم الوثائقي التونسي على التّوثيق وتثمين الحنين إلى الماضي بالاعتماد على وثائق مصوّرة من الأرشيف، رغم ندرتها، ورصد بعض الشهادات الحيّة، الأمر الذي من شأنه أن يساهم في ترسيخ صورة نمطية معلّبة وحصرها في فكرة معيّنة تحول دون الانفتاح على مواضيع ورؤى جديدة. وعلاوة على ذلك، لم تواكب صناعة الفيلم الوثائقي في تونس تطوّر أساليب وفكر السينما الوثائقية المعاصرة التي استفادت كثيرا من البعد الدرامي القصصي للفيلم الروائي، وفسحت المجال للتدخّل الفنّي والإبداعي حول كلّ ما يتعلّق بالشّكل والسياق وطريقة معالجة الموضوع وما يرافقها من مؤثّرات سمعية وبصرية مثل اللقطات التوضيحيّة (الخرائط، المخطّطات الطبوغرافية، الرّسوم البيانية والهندسية، المجسّمات)، واللقطات التعويضيّة (صوّر حركية ثلاثيّة الأبعاد، المحاكاة والتّشخيص)، بالإضافة إلى استخدام الموسيقى التصويريّة والمؤثّرات الصّوتية التي تزيد من جاذبيّة الصّورة وتأثيرها.

ولئن تسارعت وتيرة إنتاج الأفلام الوثائقية بعد الثورة فإنّه غاب عنها الإبداع والرّؤية الثّاقبة وسقطت في المباشرتيّة وفي شراك الخطابية الفجّة والثّرثرة المملّة والطّرح الممزوج بالسياسي. لكن توجد دوما استثناءات، وفي هذا السياق لا يفوتنا أن نذكر روّاد السينما الوثائقية في تونس الذين تركوا بصمة واضحة عبر تناولهم لقضايا ومواضيع مهمّة على غرار المخرج السينمائي حميدة بن عمّار الذي اهتمّ بتاريخ تونس السياسي والاجتماعي والثقافي القديم والمعاصر وعبد الحفيظ بوعصيدة الذي حاول البحث عن مواطن التعدّد الثقافي والإثني في تونس، بالإضافة إلى «محمود بن محمود» و«هشام بن عمّار» اللّذين تميّزا في فنّ «البورتريه» وفي رسم ملامح الشخصيات بطريقة صادقة وعلى درجة عالية جدّا من الجودة والإتقان.

لا يبدو غياب الأفلام الوثائقية عن الشّاشة الكبيرة والصغيرة مجرّد غياب عفوي، بل يعكس التصحّر الثقافي والفكري الذي نعيش على وقعه نتيجة غياب مشروع وطني ثقافي واجتماعي متكامل ينهض بالصناعات الثقافية والإبداعية ويقطع مع السّطحية والرّداءة التي أفرزتها عديد التراكمات السلبيّة في هذا المجال.

د.محمد ناظم الوسلاتي

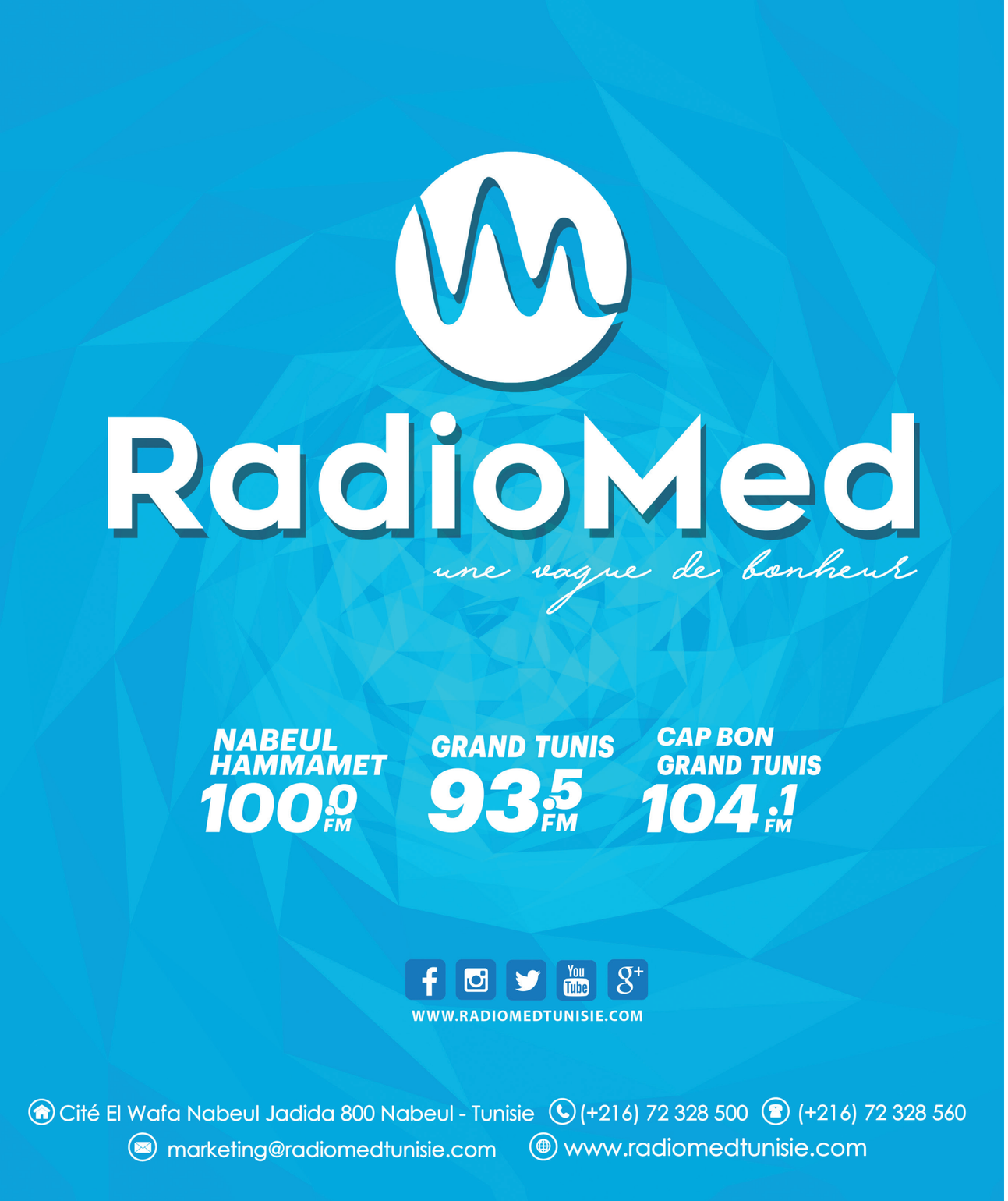

حجّ التونسيين إلى البقاع المقدّسة عبر العصور

بين البلاد التونسية والبقاع المقدّسة صلات لم تنقطع منذ أنْ ترسّخت في إفريقيّة أركان الدين الإسلامي وانتشرت في ربوعها تعاليمه وشعائره، ومنها شعيرة الحجّ.

قبل ظهور وسائل النقل الحديثة، كانت تنطلق من تونس في كلّ موسم قوافل الحجّ التي ينضمّ إليها حجّاج المغرب الأقصى والجزائر في رحلة مشتركة كانت الغاية منها توفير أسباب الأمن والتعاون. ولم يكن لحجّاج الشمال الأفريقي بدّ من عبور البلاد التونسيّة، إذ ليس لامتطاء البحر من سبيل فلا توجد في العهد القديم شركات للملاحة تعدّ السفن للأسفار. ويُقابل الزائرون خلال إقامتهم في القطر التونسي بالحفاوة والتبجيل وتلبس مدنه حلل الزينة والفخار ترحيبا بهم.

وللحجّ طريقان، طريق مُسحّل، أي عبر السواحل الأفريقيّة ومدنها، ويكون هذا في فصل الصيف والآخر جنوبي في الشتاء يمرّ عبر وادي سوف والجريد ومدن الصحراء الليبية إلى الواحات الداخلة والخارجة في مصر إلى قوّص فحميثرة ثمّ مناطق الصحراء الشرقية الأخرى إلى ميناء عيْذاب ثمّ إلى جدّة. وقد وصف الرحّالة المغربي محمّد العبدري الحاجي في القرن السابع هجري/ الثالث عشر ميلادي هذا الطريق وصفا دقيقا يثير الذعر في النفوس. وكان طوّف بأكثر مدن تونس سنة 688 هـ / 1289 م وتلقّى العلم عن كثير من فطاحلها كالشيخ عبد الرحمان ابن محمّد ابن عبد الله الأنصاري، المعروف بالدبّاغ، صاحب كتاب «معالم الإيمان في معرفة أهل القيروان».

أخبار الحجّ في أدب الرحلة

ووثّق معاصر العبدري ابن رُشيْد السبتي وقبله الرحّالة الأندلسي ابن جُبيْر في القرن السادس هجري/ القرن الثاني عشر ميلادي مشاهداتهما للقرى والمدن التي مرّا بها في طريقهما إلى الحجاز وقدّما بيانات عمّا لقياه فيها من معاملة وعمّا عقداه من لقاءات مع علماء تبادلا معهم أسانيد المعرفة في العلوم الدينية. كما ترجم تقي الدين الفاسي المكّي المتوفى سنة 832 هـ/ 1428 م في كتابه «العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين» لمن دخل البيت الأمين من علماء المسلمين وصلحائهم وأمرائهم من أهل تونس ومن بينهم الأمير الأغلبي عُلوان بن الحسن وعبد الرحمن ابن عقبة المهندس وعبد الله ابن عمر ابن خلف القيرواني المقرئ الذي أصبح إماما لمقام ابراهيم بمكّة وعبد الرحمن ابن خلدون والإمام أبو عبدالله ابن عرفة الورغمّي.

ومن الرحلات الحجازية التي دُوّنت، رحلة العالم والفقيه المغربي الحسين بن مسعود اليوسي، وقد دوّنها ابنه محمّد العيّاشي بن الحسن اليوسي (المتوفّى سنة 1131هـ / 1719م) وقد حقّق النصّ الأستاذ أحمد الباهي ليصدر في كتاب بعنوان «رحلة اليوسي» (سلسلة تاريخ/ إصدارات بيت الحكمة 2018). و«الرحلة شهادة عينية عن وضعية طريق الحجّ ومحطّاته ومناسكه زمن سلوكه» حسب المحقّق.

وعلى الرغم من كثرة رحلات المغاربة والأندلسيين إلى البقاع المقدّسة، فإنّه لم ترد إلّا أخبار متقطّعة عن خروج الحجيج التونسيين وطرق انتقالهم وتجمّعهم ولم تقم أيّة دراسة مكتملة ومستقصية لهذا الموضوع. ولعلّ مردّ ذلك أنّ أغلب الحجّاج هم من عامّة المسلمين. وفي بدايات القرن العشرين، سُجّلت رحلة مفتي القيروان الشيخ محمّد بن صالح الجودي الذي استأذن في الحجّ الوزير الأكبر يوسف جعيّط سنة 1331هـ / 1912م، مضمّنا في وصفه للرحلة العديد من البيانات بخصوص ظروفها والمشاق التي تكبّدها منذ أن خرج من تونس وامتطى الباخرة في اتجاه بور سعيد بمصر إلى حين وصوله إلى جدّة. ويذكر محمّد بن صالح الجودي أنّ السلطان عبد الحفيظ، سلطان المغرب كان من ضمن الحجيج في تلك السنة، وهي السنة التي تخلّى فيها عن العرش لفائدة أخيه يوسف ابن الحسن. وقد تسنّى لمفتي القيروان مقابلة شريف مكّة الحسين ابن علي وحضور مجالس الأنس والذكر، في ضيافة التونسيين والجزائريين والمغاربة المقيمين بأرض الحجاز، ممّا يدلّ على روابط التآلف والتضامن آنذاك بين أهل المغرب العربي الكبير من ناحية، ونزعة عدد منهم إلى الاستقرار في البقاع المقدّسة، من ناحية أخرى. وقد مكّن فتح قناة السويس التي تعتبر من أعظم الإنجازات في القرن التاسع عشر من إيصال البحر الأبيض المتوسّط بالبحر الأحمر، فتعدّدت شركات الملاحة لنقل الحجيج، واستعاض الناس عن ركوب العيس والجياد بركوب البواخر، ممّا خفّف من أتعاب السفر، وذلك قبل أن تتيسّر الرحلات الجويّة نحو البقاع المقدّسة، بداية من أربعينات القرن العشرين بالخصوص، فأصبح الحجيج يقضّون فقط قرابة الشهر بين الذهاب والإياب، بعد أن كانت لا تكفيهم في العصر القديم الثلاث سنين.

الصرّة الهمايونيّة

ومن مظاهر التواصل بين البلاد التونسيّة والبقاع المقدّسة ما كان يرسل من مساعدات إلى الحرمين الشّريفين مع كلّ موسم والتي تسمّى ب»الصرّة الهمايونيّة» لتوزّع على الأشراف والعلماء والفقراء في مكّة المكرّمة والمدينة المنوّرة. وقد أنشئ لذلك في تونس وقف خاصّ سمّي «وقف الحرمين الشريفين».

ومن الوثائق المحفوظة في الأرشيف الوطني دفتر يعود تاريخه إلى سنة 1887 في عهد علي باي الثالث وتتضمّن صفحاته أختاما بأسماء ممّن وزّعت عليهم مساعدات ماليّة في مكّة المكرّمة والمدينة المنوّرة خلال موسم الحجّ لتلك السنة مع ذكر المبلغ الممنوح لكلّ شخص، وذلك لإثبات تسليم هذه المساعدات للمنتفعين بها، ولتبرئة ذمّة من تولّى توزيعها، ممّا يؤكّد اتّباع القواعد الإدارية السليمة بالدولة التونسية عصرئذ (انظر ليدرز العربية العدد 24 - 15 ديسمبر/ 15 جانفي 2018).

وحسب ما ورد في مقال للدكتور مصطفى الستيتي نشره موقع ترك بريس الإلكتروني، كانت الصرّة موجودة في عهد الدولة الحفصيّة وأكثر من اهتمّ بها السلطان أبو فارس عبد العزيز الذي تولّى ملك تونس سنة 796 هـ/ 1394م حيث كان يوشّحها ويزيّنها بالحلّي تقرّبا لأهل البيت وإكراما لجيران الرسول صلّى الله عليه وسلّم . وتواصل إرسال الصرّة مع الدولة المراديّة ، وكان حمّودة باشا باي يتولّى بنفسه حفظ مال الوقف الرّاجع للحرمين الشريفين ثمّ في عهد البايات الحسينيين الذين كانوا يختارون أفضل العلماء ووجهاء القوم لإيصالها لمستحقّيها.

ووفق المصدر نفسه، كان مقدار الصرّة يختلف بالزيادة والنقص حسب مداخيل أوقاف الحرمين الشريفين. وقد جعل لها الوزير المصلح خير الدين باشا مبلغا قارّا قيمته ثمانون ألف ريال سنويّا، ←

■ اختام بأسماء المنتفعين بالمساعدات المالية في المدينة المنوّرة

أبعاد متعدّدة

وللحجّ أبعاد متعدّدة، فعلاوة على بعده التعبّدي الخالص، فهو مناسبة للتّلاقح الفكري ومجال للتأثير والتأثّر بالرأي والعقيدة والمسلك، حيث تنشأ الصحبة وأحيانا القدوة وتتّسع الآفاق الذهنيّة والعاطفيّة. وأصبحت الدول الإسلامية تؤلّف من بين حجيجها وفودا رسميّة تقوم بمهام شبيهة بالسفارة، فتحمل الهدايا والرسائل من الملوك والأمراء والرؤساء إلى القائمين على الحرمين الشريفين ولضيوف الرحمان وللمقام النبوي ومرتاديه وتعود محمّلة بالتحايا من هؤلاء إلى قادة بلدانهم. وتعقد أثناء موسم الحجّ لقاءات تيسّر التشاور والتناصح والتنسيق فتزكو العلاقات بين الأفراد والأمم وتبرم العقود والاتفاقيات، وكلّها أبعاد اجتماعية إنسانية تكاد فريضة الحجّ تنفرد بتحقيقــها دائمــا، زيادة عن بعدها الجوهري الروحي.

وقد اغتنم الزعيم الحبيب بورقيبة فرصة أدائه فريضة الحجّ في نوفمبر 1945 لمقابلة العاهل السعودي ومستشاريه لحشد الدعم لقضية استقلال تونس وتحريرها من ربقة الاستعمار الفرنسي، كما تدلّ على ذلك الرسالة التي كان وجّهها من مكّة المكرّمة إلى صديقه الصحفي الفلسطيني محمّد علي الطاهر (انظر ليدرز العربية العدد 12 15- ديسمبر 2016/ 15 جانفي 2017).

العلاقات بعد الاستقلال

أيّاما قليلة بعد الاستقلال وبالتحــديد في يوم 31 مارس 1956 أصدر محمّد الأمين باي أمرا عليّا يقضي بحلّ جمعية الأوقاف وإلغاء الأحباس العامّة الذي تبعه إلغاء الأحباس الخاصّة في سنة 1957. ونتيجة لذلك توقّف نهائيّا إرسال الصرّة إلى مستحقيها في البقاع المقدّسة، لكنّ علاقات البلاد التونسيّة بالسلطات السعوديّة اتّخذت شكلا جديدا إذ أصبح من التقاليد الراسخة أن يشكّل رئيس الجمهورية وفدا رسميّا للحجيج التونسيين ويحمّل رئيسه رسالة إلى ملك السعودية تتضمّن تحياته ومشاعر إكباره للجهود المبذولة في خدمة الحرمين الشريفين ورعاية ضيوف الرحمان، فضلا عن تأكيد العزم على توطيد العلاقات الثنائيّة وتعزيز أواصر التضامن الإسلامي. ومنذ أن حدّدت المملكة العربيّة السعوديّة حصّة لكل بلد إسلامي وفق المؤشّر السكّاني، أصبح من مشمولات الدولة التونسيّة ضبط قائمة الحجيج اعتمادا على مقاييس معيّنة منها القرعة بالخصوص والسهر على توفير أفضل الظروف لتنقّل الحجيج إلى البقاع المقدّسة وإقامتهم فيها ورعايتهم صحيّا وإرشادهم والإحاطة بهم عند أداء المناسك، إلى حين عودتهم إلى أرض الوطن.

عبد الحفيظ الهرقام

← يقسّم بالتساوي بين أهالي الحرم المكّي وأهالي الحرم المدني، وظلّ هذا المبلغ معتمدا إلى غاية سنة 1935 قبل أن يرتفع بمقدار الخمس في السنة الموالية. ويودّع ركب الصرّة في موكب بهيج يحضره الباي والوزراء ورجال الدولة وكبار موظّفي الأوقاف ومن ضمنهم وكيل وقف الحرمين الشريفين وبيده الصندوق الذي يحتوي المال الموجّه إلى الحجاز.

كما يفيد د.مصطفى الستيتي أنّ إرسال الصرّة توقّف بعد انتهاء الحــرب العالمية قبــل أن يستأنف بعد سنوات إثر تدخّل الملك عبد العزيز آل سعود لدى باي تونس الذي استجاب للطلب، رغم الضائقة المحيطة بجمعية الأوقاف وحُدّد مبلغ الصرّة بخمسين ألف ريال سنويّا. وتقديرا لمبادرة باي تونس، أهداه العاهل السعودي حزاما ذهبيّا مصنوعا من أستار الكعبة المشرّفة.

«الفتنة» للبشير بن سلامة

عندما يمتزج المرجعيّ بالتّخييليّ

صدر

للأستاذ البشير بن سلامة مؤخّرا عمل سرديّ جديد عن دار برق للنّشر والتّوزيع يحمل عنوان «الفتنة»، وهو يقع في 135 صفحة ويحتوي على أربعة فصول. وتقوم حركة القصّ في هذا العمل على استحضار بعض المراحل الدّقيقة من تاريخ تونس الحديث والمعاصر.

ولعلّ أوّل قضيّة يمكن أن يُثيرها هذا الإصدار الجديد بالنّسبة إلى قارئه قضيّة التّصنيف الأجناسيّ، فعتبات الكتاب تُشير إلى أنّه «حكايات»، وهو مصطلح غير شائع في باب الأجناس السّرديّة لأنّ الحكاية Histoire/ Story هي أحد مقوّمات القصّة وهي مضمونها السّرديّ الذّي تؤدّيه الأحداث القائمة على التّتابع واقعيّة كانت أم متخيّلة ، وليست جنسا أدبيّا كالأقصوصة والقصّة والرّواية والسّيرة الذّاتيّة وغيرها.

وتبعا لذلك فإنّ النّاظر في الأثر يجد أنّ الكتاب وإن قُسّم إلى أربع حكايات فإنّ الحدود بينها ليست صارمة ، إذ الحكايات مترابطة متشادّة لا انفصال بينها بما يجعل الأثر أقرب أجناسيّا إلى الرّواية القصيرة Novella .

وممّا يلفت الانتباه في هذا العمل كيفيّة تصرّف الكاتب في أساليب القصّ حيث يكاد يغيب السّرد والوصف غيابا كليّا ليفسحا المجال للحوار يستأثر بمجمل الأثر ، فالرّواية كلّها مُحاورة بين الشّخصيّة الرّئيسيّة «المولدي لِمْرَيِّش» والكلبة «ونيسة» ، وتُوظَّف هذه المحاورة لاستدعاء بعض الأحداث التّاريخيّة ولا سيّما الفتنة الحسينيّة الباشيّة أوائل القرن الثّامن عشر، والصّراع البورقيبي اليوسفي في صائفة وخريف 1955، واحتدام السّباق نحو خلافة الزّعيم بورقيبة أواسط ثمانينات القرن الماضي.

ويتّخذ المؤلّف الحوار بين «المولدي» و«الكلبة» إطارا لعرض معطيات تاريخيّة تتّصل بالمراحل المذكورة من وجهة نظر لا نخالها إلّا وجهة نظره هو نفسه.

وتفضي مسألة استدعاء التّاريخ إلى طرح قضيّة ثالثة تتصّل بالعلاقة بين المرجعيّ Le référentiel والتّخييلي Le fictionnel في هذه الرّواية والحدود بينهما . ففي الرّواية بعض عناصر التّخييل كإنطاق الحيوان وبعث « المولدي لِمْرَيِّش» من القبر في مستهلّ الفصل الأوّل وتشكيل عالم قصصيّ مقتطع من واقع غير معيّن، ذلك أنّ الأحداث والشّخصيّات في القصّة الإطار (قصّة المولدي وكلبته) لا تحيل على أحداث وقعت على سبيل الحقيقة ولا على أشخاص وُجدوا في التّاريخ. إلّا أنّ الأحداث التّي تُستفاد من الحوار هي أحداث وقعت في التّاريخ والأعلام الذّين تُذكر أسماؤهم أعلام وُجدوا في الحقيقة مثل حسين بن علي وعلي باشا والحبيب بورقيبة وصالح بن يوسف والمنجي سليم والطّيّب المهيري ومحمّد مزالي وفتحيّة مزالي ونائلة بن عمّار وطارق بن عمّار وصالح المهدي وغيرهم ...

أمّا من النّاحية الدّلاليّة ، فالواضح أنّ الرّواية تتنزّل في إطار رؤية المؤلّف لأطوار من تاريخ تونس السّياسيّ لا سيّما وأنّ اسمه (البشير بن سلامة) ذُكر في ثلاثة مواطن من الرّواية (ص62، ص91، ص123)، فالمعروف أنّه تحمّل مسؤوليّات في الدّولة وفي الحزب الاشتراكي الدّستوري في مرحلة مخصوصة من تاريخ البلاد اتّسمت خاصّة باحتدام الصّراع صلب دوائر الحكم من أجل خلافة الزّعيم بورقيبة، وعاصر قبل ذلك الخلاف بين بورقيبة وبن يوسف حول مسألة الحكم الذّاتي فكان لا بدّ أن يُكيّف تموقعه التّاريخي والسّياسي وجهات نظره من تلك الأحداث وأن تنعكس « هويّته الخارجيّة» النّفسيّة والاجتماعيّة على «هويّته التّلفظيّة» الخطابيّة.

ولئن اختار المؤلّف ثلاث فترات تاريخيّة مختلفة هي الفتنة الحسينيّة الباشيّة والصّراع البورقيبي اليوسفي والسّنوات الأخيرة في حكم الزّعيم بورقيبة فلِتعدّد أوجه الشّبه بين تلك المراحل التّي شهدت جميعا – مع قدر من التّفاوت- أجواء فتنة وتباغض وانقسام كادت تؤول إلى ما لا تحمد عقباه.

إلّا أنّ الرّواية – والحقّ يُقال- لم تستلهم التّاريخ على نحو أدبيّ فتعالجه معالجة فنيّة إبداعيّة وتجعله إطارا لبنية قصصيّة متماسكة تصوّر تداعيات السّياق السّياسيّ وآثاره في المجتمع والفكر وإنّما قاربت أحداث التّاريخ بشكل لا يخلو في الغالب من فجاجة ومباشرة بما جعل العناصر المرجعيّة التّاريخيّة تبدو نابية غير متمكّنة.

د. الحبيب الدّريدي

شركة عقارية قمرت
مقرّها الاجتماعي: عمارة الكرامة القابضة بحيرة أناسي
ممرّ بحيرة الملاوي ضفاف البحيرة 1053 تونس
الهاتف: 218 962 71 216+ أو 100 960 71 216+
الهاتف الجوال: 000 910 98 216+ الفاكس: 175 962 71 216+
www.gammarth-immobiliere.tn
Contact@gammarth-immobiliere.tn

GAMMARTH IMMOBILIERE

إعلان بيع
طلب عروض عدد 35 لسنة 2018
(5125 م^2 مهيأة R+10 بضفاف البحيرة)

تعتزم شركة «عقارية قمرت»، شركة على ملك الدّولة خاضعة لأحكام القانون التونسي، الإعلان عن طلب عروض للتفويت رضائيا **لحساب شركة « التاجر العقاري »** في مقسم كائن بالمنطقة الشمالية الشرقية لضفاف البحيرة (قسط وحيد) :

- **الرّسم العقاري : 140466** تونس (القطعة 12).
- **إسم العقار: الربيع.**
- **المساحة: 125 5 م^2**
- **العنوان:** المقسم I2 من تقسيم الرسم العقاري 139508 تونس، «إقامات المنتزه» المنطقة الشمالية الشرقية لضفاف البحيرة، بالقرب من بنك الزيتونة والمنطقة السكنية لحدائق قرطاج ومدينة تونس الرياضية.
- **الخصائص العمرانية:**
  - **الصبغة : سكنية.**
  - **نسبة إشغال الأرض (COS): 0.6**
  - **نسبة الاستعمال العقاري (CUF): 5**
  - **الارتفاع : 44 متر(R+10).**

يمكن الإطلاع على الأمثلة الموقعيّة للعقار على الرابط www.gammarth-immobiliere.tn أو مباشرة بالمقر الاجتماعي لشركة «عقارية قمرت» أو بمكتبها بمدينة سوسة.

يتم التفويت في الرّسوم العقارية موضوع طلب العروض خالية من الرّهون أو التحملات. و ترجع ملكيته الى شركة «التاجر العقاري»شركة مصادرة راس مالها على ملك الدولة التونسية.

وتخضع إجراءات التفويت الجاريّة للأحكام والبنود الواردة بكراس الشّروط النّموذجي وبنص إعلان طلب العروض.

يتعلّق البيع بالممتلكات على الحالة التي هي عليها كما تقع معاينتها من قبل المشاركين ومستشاريهم وتحت مسؤوليتهم.

ويدعى المهتمّون بطلب العروض إلى ربط الصلة بالجهات الإداريّة المحليّة والمصالح الفنيّة المختصّة، عند الإقتضاء وقبل المشاركة، إلى مزيد التّثبت من صبغة الممتلكات موضوع التّفويت ومن ضعيتها القانونيّة والفنّية.

يمكن لكل شخص طبيعي أو معنوي يرغب في المشاركة في طلب العروض الحالي زيارة ومعاينة العقار الموضوع للبيع طبقا للشروط المحدّدة بكراس الشروط وبعد سحبها مقابل خلاص مبلغ غير قابل للاسترجاع قدره مائة و خمسون دينار (150 د) نقدا أو بواسطة صك يسلّم إلى القسم المالي للشركة أو بفرع الشركة الكائن قبالة مفترق سهلول سوسة خلال التوقيت الإداري.

ترسل العروض في ظروف مغلقة ومختومة عن طريق البريد مضمون الوصول أو البريد السريع أو تودع مباشرة مقابل وصل في الاستلام لدى مكتب الضبط لشركة عقارية قمرت. ويحمل الظرف الخارجي وجوبا التنصيصات التالية:

المرسل إليه : شركة «عقارية قمرت»

العنوان : نهج بحيرة أناسي – ممر بحيرة الملاوي عمارة الكرامة القابضة ضفاف البحيرة 1053 تونس

الموضوع: المشاركة في طلب العروض عدد 35 لسنة 2018

« لا يفتح من قبل مصالح مكتب الضبط»

يتكونّ ملف العرض المضمّن بالظرف الخارجي من جميع الوثائق الإدارية والمالية المرتّبة من «آ» إلى «ح» والمنصوص عليها بالفصل 8 المتعلق بمحتوى العروض بما في كذلك ضمان المشاركة طبقا لمقتضيات كراسات الشروط والمحدّد جزافيا بمبلغ **مائة وخمسون ألف دينار تونسي (000 150 د).**

حدّد آخر أجل لقبول العروض ليوم الثلاثاء **25 سبتمبر 2018** على السّاعة الثالثة بعد الزوال (15س00). ويعتمد ختم مكتب الضبط لشركة عقارية قمرت كمرجع وحيد لاثبات تاريخ وصول العروض. وتنعقد جلسة فتح العروض العلنية في نفس اليوم على الساعة الثالثة والنصف بعد الزوال (15س30) بالمقر الاجتماعي للشركة بحضور عدل تنفيذ والعارضين أو من يمثلهم (مصحوبين بإثبات هوية وبتوكيل).

ويبقى المشاركون ملزمين بعروضهم لمدّة **مائة وثمانون (180) يوما** بداية من اليوم الموالي للتاريخ الأقصى المحدد لقبول العروض.

لمزيد الإرشادات يرجى الإتصال بالمصلحة التجارية للشركة أو بفرعها الجهوي الكائن قبالة مفترق سهلول سوسة أو على الأرقام: (000 910 98 216+ أو 037 369 73 216+ أو 100 960 71 216+).

لا تُدِرْ ظهرك لكلبك

رئيس حزب يدعو إلى التّرويض بدل التّدمير؛ والتّرويض فنّ عصيّ يتطلّب كثيرا من الصّبر والأناة؛ ولا أحبُّ أن أثنيَ الرّجل، وإنّما أحببت أن أنبّهه إلى أنّ أمهر المروّضين ماتوا على حلبة السّيرك، إمّا صرعًا بضربة مخلب، أو طحنا بين فكّيْ أسد؛ ولعلّ المصري محمّد الحلو كان أشهرهم؛ فقد أدار للأسد ظهره حين التفت يحيّي الجمهور، فوثب عليه، فنزع كليته؛ ومات المروّض، وهلك الأسد جوعا وعطشا، وقد أضرب عن الطّعام؛ حتّى الأسود تفعلها، وهلْ غير الأسود يفعلها؟ الرّجل ليس مروّضَ أسود؛ والنّاس في هذه البلاد لا يحبّون الفرجة في السّيرك إلاّ إذا صرع الأسدُ مروّضَه... ما بال الرّجل لا يتعلّم، في البدء، ترويضَ الكلاب؟ فذلك أقلّ خطرا... نبدأ بالمقدّمة» لا تطلق على كلبك اسما طويلا، مثل «السّهم الأزرق الذي لا يخطئ الهدف»، أو «الكلب المخلص حامل الأمانة»، أو «سيّد الكلاب الثّوريّة»؛ فتلك أسماء لا يحفظها النّاس، فكيف بالكلاب؟ النّصيحة الأولى: لا تناد كلبك باسمه، فقط، لتضع الطّوق في عنقه؛ - «تعال يا فوكس!»؛ فيقول فوكس محدّثا نفسه: «آه! هل انتهت الفسحة؟ مازال الوقت باكرا؛ سأتصنّع الطّرش؛ فلو أجبتُه الآن، لوَضَعَ الطّوق في رقبتي وأدخلني البيت حالاً»؛ اجتنبْ هذا الخطأ! فإذا ناديت كلبك، فآشحنْ صوتك بكلّ الحبّ الذي في قلبك، إن كان في قلبك حبّ، فإذا لبّى نداءك، فمسّحْ عليه، وناولْه قطعة حلوى أو اللّعبة التي يحبّ، ثمّ دعه يذهب؛ وأعد الفعل مرّاتٍ في اليوم، حتّى يأنس إليك... النّصيحة الثّانية: لا تُدخل كلبك إلى البيت حالما يقضي حاجته؛ -: «حسنا! الآن، تعال ندخلْ!»؛ فيقول فوكس في نفسه: «لو قضيت حاجتي حالما أخرج، لأعادني إلى البيت حالاً؛ إذا سأمْسِك حاجتي في جوفي، إلى أن تغلبني». اجتنبْ هذا الخطأ! ودَعْه يتسكّع قليلا، ولا تنهره إلاّ إذا بال على باب الجيران، كما فعل يوم 09 أفريل 2012...النّصيحة الثّالثة: لا تمرّغ له أنفَه في برازه إن أخطأ وقضى حاجته داخل البيت؛ -: «سأضع لك أنفك فيها، حتّى لا تعيد فعلتك!»؛ فيقول فوكس في نفسه: «لا بدّ أنّ سيّدي غير موافق على هذا الصّنيع؛ لا بدّ لي أن أقضي حاجتي حيث لا يراني، أو أن أمسك نفسي، فلا أقضيَها أبدا!». اجتنبْ هذا الخطأ! لا تجعل كلبك يتصوّر أنّك تصدّه عن قضاء حاجته، في المطلق؛ يجب أن يعرف أنّك تعترض على الموقع فقط، تحت ضوء الكاميرات والصّحافيين؛ فإذا فاجَأْتَه وأدركتَه وهو يفعلها في المطبخ أو في غرفة النّوم، أو في شارع بورقيبة، أو حتّى تحت قبّة البرلمان (ما الذي جاء به إلى هناك؟ ذاك فضاء ممنوع على الكلاب)، فصُدّه بلطف وقلْ له: «لا! يا عزيزي، تعال خارج البيت، في ركن مظلم، بعيدا عن الأعين»؛ خذْه حتّى إلى تخوم الصّحراء، إن شئت، وأخرِجْه، ثمّ جازِه إن سمع وأطاع؛ ولا تعاقب الكلب قبل ثلاثة أشهر من عمره، فالعقاب قبل هذا العمر لا معنى له، لأنّ الكلب لا يعرف ولا يفهم لماذا يُعاقب؛ فإذا بلغ سنّ الفطام، وصار له من العمر عامان، فأدّبه واكسر العصا على ظهره إن لزم الأمر، واحذر أن يبلغ شيء من ذلك إلى بريجيت باردو... النّصيحة الرّابعة: لا تتخاذل وثابر؛ -: «ليس بي رغبة اليوم، سنعود إلى التّمارين في الأسبوع المقبل، مازالت أمامنا فسحة من الوقت»؛ فيقول فوكس في نفسه: «إذًا، سأطارد المارّة في الطّريق!»؛ كما فعل يوم 09 أفريل 2012. اجتنبْ هذا الخطأ! ولا تتهاون، فالمثابرة طريق النّجاح؛ وواظب على التّمارين اليوميّة؛ فإذا أمطرت، أو أثلجت، أو أرمضت، فخذْه داخل البيت، فكلّ البيوت بيتك، أحبّ أهل البيت أم كرهوا!... النّصيحة الخامسة: لا تسجن نفسك في الزّمان؛ -: «لقد قضّيت عمري مع الكلاب، وصرت أعرف طبائعها، وكلّ فنون التّدريب والتّمرين»؛ فيقول فوكس في نفسه: «ها نحن صرنا سجناء زمن مضى وولّى!»؛ اجتنبْ هذا الخطأ! هل تظنّ فنون القرن السّابع للميلاد ساريةً على عصرنا هذا؟ الكلاب غير الكلاب، والطّبائع غير الطّبائع! فتّح عقلك، وانظر حولك وتعلّم! تغيّرت الأوقات! فإذا لم يفهم فوكس مقصدك، فاعلم أنّ العيب فيك، وتعلّم، واقرأ، ولا تجعل نفسك حبيسَ كتاب أو كتابين! ربّما تكون أنت نفسك في حاجة إلى التّرويض! ولا تتصوّر أنّ كلبك هو تلميذك، فقط؛ هو أيضا معلّمك؛ فتعلّم منه كيف ينبح، وكيف يبصبص؛ وفي كلّ الحالات، لا تفعل كما فعل محمّد الحلو، ولا تُدِرْ ظهرك لكلبك أبدا!... نصيحتي إلى الكلب أيضا، ألاّ يدير ظهره لك أبدا!.

ص.و.